رشيد بن مالك

السيميائيات السردية



الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

المملكة الأردنية الهاشمية رقم الإيداع لدى الدائرة الوطنية (٢٠٠٦/٨/٢١٤٤)
رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر (٢٠٠٦/٧/٢٦٨٦)

٨١٣,٩
مالك ، رشيد
السيميائيات السردية/ رشيد مالك. -عمان: دار مجدلاوي ، ٢٠٠٦
( ) ص.
ر.أ: (٢٠٠٦/٨/٢١٤٤)
الواصفات: /القصص العربية // النقد الأدبي/

*** تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية**

ISBN 9957-02-250-4 (ردمك)

Dar Majdalawi Pub.& Dis.
Telefax: 5349497 - 5349499
P.O.Box: 1758 Code 11941
Amman- Jordan



دار مجدلاوي للنشر والتوزيع
تليفاكس : ٥٣٤٩٤٩٧ - ٥٣٤٩٤٩٩
ص . ب ١٧٥٨ الرمز ١١٩٤١
عمان - الاردن

المحتويات

مقدمة	7
مستقبل الدراسات السيميائية في العالم العربي	9
واقع وآفاق السيميائية في الفكر الأوروبي	10
التطورات الراهنة في النظرية السيميائية	13
المربع السيميائي، المسار التوليدي، السردية	18
واقع وآفاق السيميائية في العالم العربي	23
الحركة السيميائية في الدراسات العربية المعاصرة	23
قراءة سيميائية في كليلة ودمنة لعبد الله بن المقفع	45
التحريك / الاستراتيجية الخطابية في النص	46
المواجهة / البنية الجدالية في النص	50
البيبليوغرافيا	69
دراسة تحليلية لرواية نوار اللوز	71
النظام السيميائي لفاتحة الرواية / البحث في مستويات النص وأشكال بنينته	72
البنية السردية وتجلياتها الدلالية في رواية نوار اللوز	87
شخصيات الرواية / تصنيفها وتنظير مكوناتها الشكلية والدلالية	129
قراءة سيميائية في رواية "عواصف جزيرة الطيور"	155

رهانات الصراع في الرواية 156

بيبليوغرافيا البحث 179

ملحق خاص حياة الروائي خلاص جيلالي وإنتاجه 179

المراجع المعتمدة في البحث [مرتبة حسب ظهورها في النص] 181

مقدمة المؤلف *

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء حزمة أخرى من الضوء على "السيميائية"، بوصفها خياراً منهجياً مغايراً للمناهج النقدية التقليدية، بما يساعد على تطوير "سيميائية عربية" ليست نسخة حرفية أو مطابقة للسيميائية في الغرب. وقد خصصنا المدخل النظري لقراءة بعض الإنجازات السيميائية العربية الراهنة وتوصيف المشاكل المنهجية العالقة بخصوص هذا التوجه النقدي الجديد الذي تمكن في ظرف وجيز من فرض سلطته المعرفية على البحوث التي يتبنى أصحابها مقتضيات الخطاب العلمي في قراءة الأنظمة الدالة باللسان وغير اللسان. إن ما تحقق في هذا المجال، على الرغم من أننا ما زلنا في بداية الطريق، ليس وليد لحظة حاضرة بل إنه محصلة لمسار طويل محفوف برفض ونبذ كل ما له علاقة بالتفكير العلمي وتسييج الدراسة النقدية في دائرة الأحكام المعيارية وتعبئة الطاقات النقدية الشابة لمحاربة الحداثة بحجة أنها "وافدة من الغرب". ولا يهم في كل ذلك إن كانت المناهج الحداثية تبشر بحاضر تكون فيه السلطة للفكر أو بمستقبل يحقق للإنسان وجوده في لحظة يرفض فيها أو يقبل تبني هذا التيار أو ذاك من محض إرادته ومن منطلقات قناعاته المؤسسة.

ومع ذلك، فإن البحوث البنيوية والسيميائية على حد السواء في الساحة النقدية العربية استطاعت منذ ظهور إرهاصاتها الأولى في السبعينيات أن تحدث هزة عنيفة في الممارسات النقدية السائدة بتقديم بدائل منهجية لم تلق إقبالا في مستوى الأهمية التي تكتسبها. وقد آن الأوان لتقديم قراءات موضوعية حول ما تحقق في ضوء الإنجازات السيميائية الأوروبية الراهنة، وبلورة رؤية كفيلة بتوسيم نقاط القوة والضعف يتم على أساسه صناعة خطاب نقدي جديد بهذا الاسم.

تناولنا في القسم التطبيقي من هذه الدراسة مجموعة من النصوص السردية بالدرس والتحليل. وركزنا على نص قديم هو نص "النصيحة" التي أسداها الفيلسوف بيدبا للملك دبشليم، كما ورد في كليلة ودمنة لابن المقفع. كما اخترنا روايتين،

الأولى رواية (نوار اللوز-تغريبة صالح بن عامر الزوخري) لواسيني الأعرج، والثانية (عواصف جزيرة الطيور) لجيلالي خلاّص، وحاولنا بقدر الإمكان في أثناء تعاملنا معها تجاوز المعضلة المصطلحية بتبسيط الخطاب النقدي رغبة منا في تحقيق الوصلة العلمية بالقارئ العربي. كما حاولنا تنويع زوايا النظر إلى النص باستغلال القضايا النظرية السيميائية، دون التقيد الآلي بها، وتسخيرها للإصغاء إلى نبضاته والتمييز بين أصواته وضبط آليات اشتغاله والوقوف عند تجلياته الدلالية بعد التأكد من سلامة ما وضعناه من فرضيات والتحقق منها في أثناء التحليل. ولما كانت هذه النصوص تشترك دلاليا في موضوعة السلطة وعلاقتها بالشعب والمثقف، فإننا عبأنا المقاربات المنهجية لفهم واستجلاء المعنى الذي يتسرب عبر الممارسة السياسية.

رشيد بن مالك

مستقبل الدراسات السيميائية

في العالم العربي

⓪. مقدمة منهجية[*]

إن الحديث عن مستقبل الدراسات السيميائية في العالم العربي يعد مغامرة صعبة لاعتبارات عديدة؛ **أولها**: أن الكلام على هذا الموضوع يفترض وجود جرد لكل الدراسات السيميائية العربية، وهذا أمر يكاد يكون مستحيلا للانقطاع العلمي الموجود بين المؤسسات العلمية العربية والباحثين العرب. **ثانيها**: يفترض أيضا تشكيل فرق بحث يأخذ أصحابها على عاتقهم، كل في إطار تخصصه من هذه التخصصات الدَّقِيقَة في الحقل السيميائي، قراءة وتمثل الإنجازات العلمية المحققة قبل وبعد وفاة (أ. ج. غريماس) وفي حدود معرفتي المتواضعة، يبدو الإلمام بهذه المسائل محدودا جدا، لا يتجاوز المستوى الفردي، إذ لم يستطع الباحثون العرب –بحكم ظروف قاهرة– تعبئة كفاءاتهم في سبيل تحقيق فعل علمي ينضوي تحت تحزّ جماعي وتأسيس خطاب علمي جدير بهذا الاسم»

في غياب الفرق البحثية الرسمية والتواصل العلمي المنشود، ظلت جهود الباحثين تبذل على المستوى الفردي فقط. ويحصل التبادل العلمي بينهم كلما أتيح لهم لقاء ظرفي يكون مناسبة لمناقشة بعض القضايا العلمية الوثيقة الصلة باهتماماتهم البحثية؛ وعليه، فإنه لم يتم التعامل مع هذه الانجازات إلا بالقدر القليل الذي لا يسمح بالإحاطة الشاملة بتفاصيل البحث السيميائي المعاصر. وحتى الدراسات الموجودة تكاد تقتصر على **سيميائية الجيل الأول**. من هذه الزاوية، جاءت الانتقادات التي وجهها بعض النقاد العرب للسيميائية (وهي انتقادات أقرب إلى **الأحكام القيمية** من النقد العلمي المؤسس) مفتقدة إلى قراءة واسعة ومتمثلة للأطر المفهومية للنظرية السيميائية. يعطي هذا النوع من القراءات صورة مميعة، مشوهة ومضللة للقارئ العربي الذي يظل بحكم انقطاعه عما يجري هناك في حيرة

من أمر هذه الخطابات التي يدعي أصحابها اليوم شيئا ويتبنون غدا شيئا آخر دون سابق إنذار.

لهذه الاعتبارات، يصعب علينا استشراف المستقبل في هذا النوع من الدراسات، ومع ذلك، سنحاول تقديم قراءة جزئية لمستقبل لا نستطيع أن ندرك خفاياه ونتبين آفاقه إلا إذا فهمنا ما يجري في عالمنا اليوم، ونظرنا عن كثب في التراكمات المعرفية، وما النتائج المحققة في الدراسات السيميائية العربية الراهنة، وما الحلول التي يمكن أن نصوغها بخصوص المشاكل البحثية العالقة في الساحة النقدية العربية. وقبل أن نعرض لهذه المسائل يجدر بنا أن نقدم بعض التوضيحات بخصوص (السيميائية – مدرسة باريس) والتحولات الجذرية التي عرفتها بعد عام 1992. ستمكننا هذه الوقفة من إدراك بعض التوجهات المنهجية العامة التي آل إليها البحث السيميائي المعاصر، والنظر في إمكانية الإفادة من هذه الإضاءات لفحص ما يجري في الدراسات العربية وتقويم الحركة السيميائية الناشئة في الخطاب النقدي، وصياغة بعض عناصر الإجابة على المسائل المطروحة على الصعيدين النظري والتطبيقي

1. واقع وآفاق السيميائية في الفكر الأوروبي

ينبغي أن نسلّم في البداية بأن تحرّي المعرفة يظل دائما معلقا ما دام المسار البحثي في جميع المعارف الإنسانية يحمل في مظانه أسباب الانقطاع والاستمرار. وترتهن مسألة التعليق في وجودها إلى طبيعة العلم الذي يحيا بتجاوز الأخطاء لا بتثبيتها. من هنا، يؤكد (جاك جينيناسكا) أن الإرث الغريماسي (نسبة إلى غريماس) لا يتمثل في إنجازات السيميائية بقدر ما يكمن في ضرورة مدّ المشروع السيميائي بما يتجاوز المعرفة الثابتة[1]. ويعد الإرث الغريماسي ملكا لأولئك الذين يمارسون السيميائية مقتنعين في ذلك بأن هذه الممارسة تنضوي تحت مشروع يظل دائما

(1) Jacques Geninaska, Et maintenant? in Mauricio Beuchot Pierre, Maria Pia Pozzato Jacques et autres, Lire greimas, PULIM, Limoges, 1997 .

مفتوحا وتكون فيه السلطة للفكر. على أساس هذه القناعة، لرسى أ. ج. غريماس قواعد البحث السيميائي الذي نلمس توجهاته العامة في إعادة قراءته للمشروع البروبي (مشروع فلاديمير بروب) من منطلقات هذه القواعد وصياغته الجديدة لمجموعة من القضايا المرتبطة بتعريف **الوظيفة**، **ومستويات تنظيم السردية**، **والرسم السردي** بوصفه بديلا للتتابع الوظيفي[1].

وتوجت جهوده بنشر كتاب موسوم بـ **السيميائية/ المعجم المعقلن لنظرية الكلام** (1979) ألفه مع الباحث جوزيف كورتيس. وقد أثار هذا الكتاب في الوقت نفسه رضا الباحثين (الذين لاحظوا أن كل المفاهيم التي استعملوها ثبتت أخيرا وسميّت بشكل نهائي)، وسخطهم لأن الشكل الكلاسيكي للنظرية التي استقرت على هذا النحو وجاءت في الاستمرارية الدقيقة مع كل الاقتراحات المتضمنة في الدلالية البنيوية لا تناسب التطور الحقيقي للبحث. لقد كان غريماس يتوقع هذه الردود. ولئن كان يدرك أن تقديم القاموس بالشكل الذي ارتضاه يحيط بشكل محدود بالبحوث الجارية، فإنه "مقتنع بأن المشروع العلمي لا يعني شيئا إلا إذا تحول إلى تحرّ جماعي[2]". من منطلقات هذه القناعة، ينظر إلى المصطلحية المعتمدة في القاموس على أنها تعبير مؤقت لانشغالات علمية. ويعترف غريماس في نهاية هذه المقدمة بوجود فجوات في بحثه، لعل أهمها تلك المتعلقة بالمكانة المخصصة للمنطق الأنجلو ساكسوني. وإذا كانت التفاتته غير كافية، فلأن إشكالية أفعال الكلام متماثلة مع نظرية التلفظ التي صيغت تحت تأثير أفكار أوستين J. L. Austin وبنفنيست E. Benveniste وطورت فيما بعد كقسم مدمج في السيميائية العامة. ولأن الإسهامات المنطقية الخالصة، وهذا فيما يبدو السبب الجوهري، لا يمكن أن

---

(1) سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، المغرب، 1994، ص. 21- 23. انظر:

- A. j. Greimas,Les acquis et les projets in J. Courtés, Introduction à la sémiotique narrative et discursive,HU,Paris,1976,p. 6/7.

(2) A. J. Greimas , J. Courtés, Sémiotique /Dictionnaire raisonné de la théorie du langage , HU, Paris , 1979 , p III.

تدرج إلا في إطار تقديم كامل نسبيا لكلام المنطق، مما يجعلها تؤثر على الاقتصاد العام للمؤلف. وتنسحب هذه الملاحظة أيضا على التداولية الأمريكية التي يتوافق حقل اهتماماتها جزئيا مع الكفاءة الجهاتية التي طورها غريماس في قاموسه. ومن الواضح أن أسباب تردّده بينة، فهو بين اختيارين: إما أن تدخل إشكاليته في عداد نظرية الكلام، وبالتالي تكون ترجمة هذه الإسهامات في شكل سيميائي محصلة طبيعية، وإما أن تعد السيميائية من المنظور التداولي ملحقا غير سيميائي للسيميائية تستعمل فيه مقولات متنافرة – ذات طابع سيكولوجي أو سوسيولوجي–، وعليه، لا يمكن أن تطالب بمكانة في معجم السيميائية. إن هذه المسألة التي تتدرج في إطار الإشكالية العامة للتلفظ والتي تقف وراءها بحوث إ. بنفنيست، سيثيرها أ. ج. غريماس في أثناء دراسته لمادة العامل في المعجم. ونعتبر الشروحات التي قدمها[1] بخصوص هذه المادة وما تعلق بمسألة التلفظ énonciation واللافظ énonciateur والملفوظ له énonciateur والتداولية pragmatique بمثابة المحاور الكبرى للبحث السيميائي، نوعا من التوقع لما ستؤول إليه السيميائية مستقبلا، وبالتالي ستكون مسألة التلفظ بؤرة للتطور السيميائي وتحولا إبيستيمولوجياً بخصوص التعامل مع المواضيع السيميائية.

من هذه المنطلقات تأتي بحوث ج. كورتيس J. Courtés في التلفظ[2] وج. فونتانيل J. Fontanille[3] في النقود التي وجهها لدراسات غريماس حول المربع السيميائي، المسار التوليدي والسردية، في الامتداد الطبيعي للبرنامج العام الذي سطره أ. ج. غريماس في المعجم.

---

(1) يميز غريماس في صلب الخطاب الملفوظ بين: أ. عوامل التبليغ (أو التلفظ) وهم: الراوي والمروي له والمخاطِب والمخاطَب (الذين يساهمون في بنية التخاطب م هي الحوار) ب. عوامل السرد (أو الملفوظ): الفاعل/الموضوع، المرسل/المرسل إليه؛ في هذا الموضع، يقابل بين العوامل التركيبية (المسجلة في برنامج سردي معطى) كفاعل الحالة وفاعل الفعل، والعوامل الوظيفية (أو النظمية) التي تضطلع بأدوار عاملية في مسار سردي محدد (المعجم، ص.3-4).

(2) J. Courtés, L'énonciation comme acte sémiotique, Nouveaux actes sémiotiques, Pulim, Université de Limoges, n°58-59,1998.

(3) J. Fontanille, Sémiotique et littérature / Essais de méthode, PUF, Paris, 1999 .

1-2 التطورات الراهنة في النظرية السيميائية

تقف وراء التطورات الراهنة للنظرية السيميائية مجموعة من الانشغالات العلمية التي تقضي بضرورة فهم النشاط اللغوي في علاقته بالموضوعات السيميائية التي يعبئها الفاعل المتكلم لإقامة التواصل مع المتلقي. على هذا الأساس، تصف التداولية استعمال المتكلمين للأدلة اللغوية بهدف التأثير في الآخرين[1] وتحقيق مقاصدهم التواصلية.

في إطار هذا التوجه العام للتداولية، تعددت زوايا النظر واختلف أصحابها في مسألة الاقتراب من الفعل الكلامي، فنزع فريق منهم إلى المنظور الفلسفي وإعطاء الأولوية للآثار التي يحدثها اللافظ في الملفوظ له دون أن يهتم في ذلك بالارتقاء إلى الاستراتيجيات التي يسخرها اللافظ. في هذا الاتجاه، يميز أوستين بين الملفوظات التقريرية والملفوظات الإنشائية. تسمى العبارة إنشائية إذا كانت مسخرة لوصف حدث. وتكون تقريرية في حالتين: أ) إنها تصف فعل المتكلم ب) يعني تلفظه تنفيذ هذا الفعل. في "ينبغي أن تنظف البيت"، فإني لا أعبر فقط عن رأيي في ما هو مريح من أمر التنظيف للمخاطب، ولكني في الوقت نفسه أصدر أمرا. في امتداد هذه الطروحات، يذهب ج. ر. سيرل J. A. Searle إلى أن الوظيفة الأولى والمباشرة للفعل الكلامي هي تغيير وضعية المتكلمين، من هنا، فإنه يؤكد على نتائج فعل الكلام، وفي قدرته على خلق وضعية جديدة.

ويقترح غريس Grice. H. P، في اتجاه آخر، مبدأ عاما يكون فاعلا في استقلاليته عن فعل الكلام، ويتحكم في التبليغ ويحتكم إلى هذا المبدأ السلوك العقلاني للفرد الذي يؤسس مبدأ التعاون في التبادل التفاعلي حول مقاصد المساهمين. ونلاحظ في تحليله للمدونة الآتية:

– أنزل سلة النفايات، من فضلك.

---

(1) Oswald Ducrot,Tzvetan Todorov,Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage,Seuil,Points,Paris,1972,pp. 423. 430.

- أحب أن تنزل سلة النفايات.
- هل تستطيع أن تنزل سلة النفايات؟
- هل ترغب في إنزال سلة النفايات؟
- هل أنزلت سلة النفايات؟(1)

أنه عقد أهمية قصوى إلى متلقي الرسالة وكل الممكنات الدلالية التي يمكن أن يتوقف عندها في أثناء التأويل. وقد وضع الباحث هذه المدونات تحت مجهر الحكم maximes التي تعتبر كمصفاة يكمن دورها في ضبط القنوات التواصلية الدالة. وتبعا لهذا التوجه المنهجي، يظل منتج الملفوظ في لحظة ترقب لرد فعل المتلقي. وقد حاول الباحث تقديم مجموعة من الافتراضات من موقع الأم وبوصفها لافظة وبنى عليها بعض التأويلات التي قد تنأى عن المرامي الدلالية للجملة الموضوعة قيد الدرس.

في إطار هذه التوجهات العامة، وانطلاقا من التمييز الذي وضعه غريماس- استنادا إلى طروحات إ. بنفنيست اللسانية - بين عوامل التلفظ وعوامل السرد المحددة سلفا والذي ينضوي تحت السيميائية الكلاسيكية التي أولت في السبعينيات والثمانينيات أهمية خاصة إلى سمات التلفظ المسومة في الملفوظ، أعاد جوزيف كورتيس قراءة الإرث السيميائي وفق آليات جديدة تنظر إلى الموضوع السيميائي على أنه محصلة لعملية التلفظ التي ترتهن في وجودها إلى فاعل التلفظ الذي يغطي وضعيتين عامليتين: اللافظ والملفوظ له(2). حتى نوضح هذه المسألة يجدر بنا أن نقدم بعض الإضاءات المنهجية بخصوص المقاربة المنهجية المسخرة لفحص الموضوعات السيميائية قبل وبعد 1992.

---

(1) Roland Posner,Signification et usage des connecteurs proposisionnels dans les langues naturelles , Actes sémiotiques-Documents,n°56, Besançon ,1984 ,p. 11.

(2) A. J. Greimas , J. Courtés ,Sémiotique / Dictionnaire raisonné de la théorie du langage ,HU, Paris , 1979 ,p. 125.

1-2-1: التوجهات السيميائية قبل 1992

1-1-2-1: التوليفة الأولى: من الملفوظ إلى التلفظ [1991]

إن المتتبع للحركة السيميائية، وتحديدا مدرسة باريس، يلحظ من دون مشقة أن الآليات المنهجية كانت معبأة لدراسة الموضوعات السيميائية المدركة في استقلاليتها عن الجهاز التلفظي. على هذا الأساس، جاء التمييز المبني على طروحات إ. بنفنيست، بين المروي (الملفوظ الملفوظ في المصطلحية السيميائية) والطريقة التي يروى بها المروي (ج. جينيت) (التلفظ الملفوظ). ضمن هذا الإطار، كان السيميائي مدعوا، وهو إزاء نص معطى، أن يستنبط تنظيمه الداخلي، ويوضح وضعية الملفوظ له فيما يعرض عليه. ولئن كان السيميائيون يدركون أن معنى الجملة أو الخطاب لا يمكن أن يحصر إلا في إطار تلفظي معطى، فإن ج. كورتيس يعترف في هذا الصدد بأنه كان يتم في الغالب التعامل مع الملفوظ كما لو أنه يملك دلالة مستقلة (عن) أو سابقة (على) تلك المتعلقة بالتلفظ. مع العلم أن **الملفوظ محصلة للتلفظ**. ومن هنا، فإن الخطاطة التي رسمها كورتيس توضح جيدا كيف أن السيميائية لم تكن تنزع إلى الفعل التلفظي بل كانت تتموضع من جهة محصلته (الموضوع السيميائي)(1):

الموضوع السيميائي ←— [**التلفظ الملفوظ** [**الملفوظ الملفوظ**]]

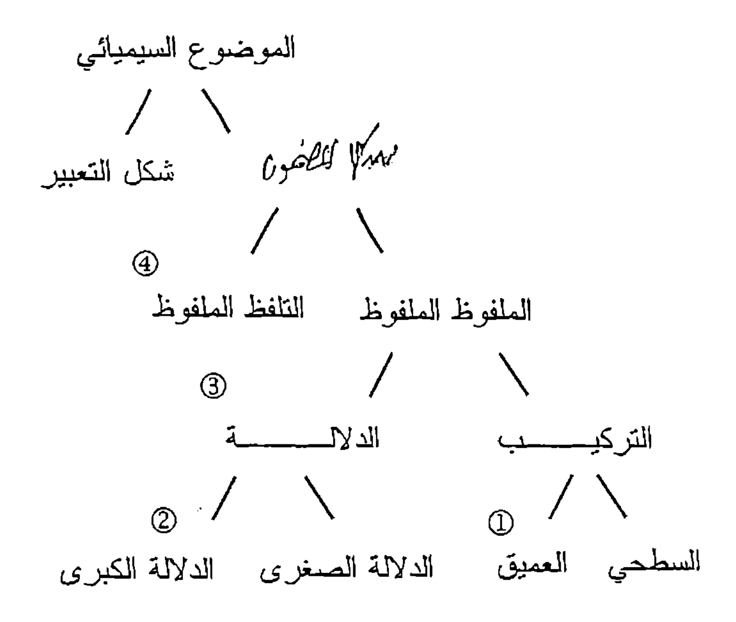
يبرز هذا الطرح الرؤية المنهجية التي كانت تقف وراء البرنامج المسطر للتصدي للملفوظ الملفوظ الذي يشكل مركز الاهتمام في المقام الأول ويليه التلفظ الملفوظ الذي يختتم به المسار التوليدى لدلالة محددة. من هنا جاء كتاب كورتيس: **من الملفوظ إلى التلفظ.**

(1) J. Courtés, L'énonciation comme acte sémiotique, Nouveaux actes sémiotiques, Pulim, Université de Limoges, n°58-59,1998,p. 12.

1-2-2 التوجهات السيميائية بعد 1992

1-2-2-1: التوليفة الثانية: من التلفظ إلى الملفوظ [1995]

يعلن جوزيف كورتيس عن رغبته في قلب معنى المسار: **من التلفظ إلى الملفوظ** الذي يأخذ الشكل الآتي:

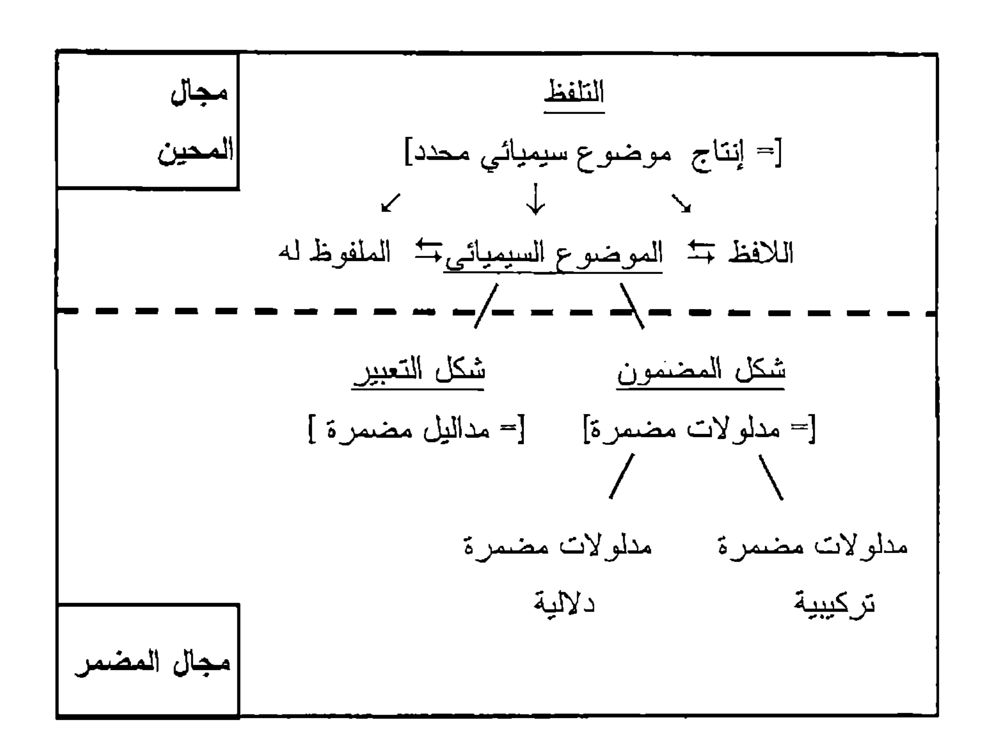


كان التوزيع في هذه الخطاطة سائدا في بداية التسعينيات. ويتفرع فيه شكل المضمون إلى الملفوظ الملفوظ والتلفظ الملفوظ. ويبدو هذا التوزيع في الوضع الراهن للبحث غير مقبول وذلك لاعتبارين. **أولهما**: إن العرض العقلاني للمسار القائد من التلفظ إلى الملفوظ يعمل على تجلية الدلالة. **ثانيهما**: يدخل صعيد التعبير في عداد المكون التلفظي على نحو ما نلحظ ذلك في الخطاطة الآتية المدرجة في التوليفة الثالثة[1].

---

(1) المرجع السابق، ص. 15

2-2-2-1' التوليفة الثالثة: [1998]



في هذه الخطاطة، يفصل الخط الأفقي المتقطع المجال العلوي المحين [المرتبط بالتلفظ] عن المجال السفلي المضمر [الذي يشمل كل التنويعات الثقافية الممكنة وذلك تبعا لمختلف أنواع الكلام المسخرة]. ويلاحظ كورتيس أنه لهذا السبب تعمل الخطاطة على تجلية الفعل التلفظي بوصفه "تحيينا" مسخرا لإنتاج موضوع سيميائي مفترض. وبمجرد أن يتنقل الموضوع (بين اللافظ والملفوظ له)، يكون التلفظ متوافقا مع المرحلة السيميائية المسماة "تحقيقا": فتنتصب الدلالة (وهي دائما غير قارة) التي يكون على أساسها اللافظ والملفوظ له متفقين أو موجودين على الأقل في نفس الخط الدلالي. ويلاحظ قارئ هذه الخطاطة أن تجزيء الموضوع السيميائي إلى شكل المضمون وشكل التعبير يقع في مستوى مضمر يفترضه التلفظ ويفضي بذلك إلى حكايات مختلفة. في هذا الموقع بالذات نلقى كل المتغيرات

التي لا تكون محصورة في ثقافة بعينها ولكنها تمتد من ثقافة إلى أخرى ووفقا للاختيارات الموجودة في كل واحدة منها والتي يرتهن النظام المضمر إلى وجودها. وتكون، في كل هذا، الكلمة الأخيرة للتلفظ الذي يحتل الصدارة في توجيه الحكاية في هذا الاتجاه أو ذاك ونصب استراتيجيته الخاصة.

3-1 المربع السيميائي، المسار التوليدي، السردية(1)

حتى نفهم مشروع غريماس في بعض جزئياته الخاصة بتحليل موضوع سيميائي معطى، نتصور نهرا في حقل: قد يثير هذا المنظر مقاربات تحليلية متنوعة: يمكن أن نلحظ هذا النهر ونكتفي بالقول: "هذا نهر". يمكن أن نقترب من ضفة النهر ونكشف عن المجاري التي يتشكل منها، فنلحظ بقايا من ماء ملون أو ملوث. يمكن أن نكثف جهودنا لدرك الخطوط التي ترسم هذه المجاري المتنوعة واضطراباتها (الخ). يمكن أن نأخذ عينة من هذا الماء ونخضعها للتحاليل في المخبر، فنكتشف إلى جانب الماء الخالص موادا أخرى. وقد تمتد معرفتنا لهذا النهر إلى الحد الذي نقر فيه مثلا أن ماء هذا النهر خليط من ماء وماء الجافيل وحمض كبريت. كما يمكن أن نكتفي، بقطع النظر عن هذه المكونات المادية، بمكونات أولية أخرى كذرات الأوكسيجين والهيدروجين. وحتى نوضح جيدا هذه المسألة، نقدم مثالا آخر كثيرا ما كان يضربه أ. ج. غريماس: ندرك العطر بحاسة الشم، ولكن إذا أردنا أن نخبره، ينبغي أن نغادر صعيد الإدراك وننفذ إلى الصياغة الكيمياوية، وقس على ذلك الكلام: ينبغي أن نغادر صعيد التجلي وننفذ إلى البنية الأولية التي يستقر عليها الكلام إنه النموذج الذي عرف باسم المربع السيميائي(2).

---

(1) إن المسائل المثارة في هذا المبحث يلقاها القارئ في:

- Jacques Fontanille, Sémiotique et littérature, Essai de méthode, PUF, Paris, 1999, pp. 3-9 .

(2) تقديم ج. كلود كوكي في: ج. ك. كوكي، السيميائية مدرسة باريس، ترجمة رشيد بن مالك، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003، ص. 14.

1-3-1 المربع السيميائي:

يقدم ج. فونتاني بعض الاعتراضات على القواعد الأساسية التي تنهض عليها النظرية السيميائية الكلاسيكية: المربع السيميائي، المسار التوليدي، والسردية. وهي إضاءات يسعى من خلالها الباحث إلى الإحاطة بمكامن الخلل في اشتغال المقولات الدلالية داخل المربع السيميائي وانعكاساته على المسار السردي والسردية. وهو يعتبر أن المربع السيميائي لا يعمل على إبراز الطريقة التي بها تأخذ المقولة شكلا ولا الطريقة التي يكون بها كل خطاب قادرا على خلق وإعادة تنظيم مقولاته الخاصة. إن بناء مربع سيميائي في أثناء تحليل نص يفترض أننا إزاء مقولة قارة، منتصبة ويكون تشكلها مكتملا. وحتى يتم إبراز الطريقة التي تتحرك بها مجموعة من الصور، وتنتقي وتعد إعدادا بهدف تنظيمها في شكل مقولات، ينبغي اللجوء إلى مناهج ونماذج أخرى.

1-1-3-1 البديل المنهجي لهذا الاعتراض:

إذا فحصنا مثلا اشتغال تناظر في نص، يمكن أن نعتبره بكل بساطة تكرارا لمضمون دلالي. وبهذه الصفة يمكن أن يقوم مقام التعليمة القرائية؛ وهذا يعني تبني وجهة نظر الخطاب – الملفوظ: ولو افترضنا أن المعنى مكتمل، فإننا نستطيع إعادة بنائه مباشرة ومن منطلقات التناظرات المهيمنة في الخطاب، وتكون كل واحدة قادرة على الانتظام بالارتكاز على المربع السيميائي. ويمكن أن نهتم أيضا بالطريقة التي يعد بها الخطاب تناظراته الخاصة، كيف يتقدم تكرار المضامين وكيف تنتصب بين الصور المختلفة العلاقة التي تسمح في ذلك بالتعرف على قرابة دلالية؛ تأسيسا على هذا، يمكن أن نفحص الطريقة التي يصل بها النص الصور ويفصلها، يضمها ويفككها وذلك في سبيل الوصول إلى التناظرات التي تتشكل في الحركة نفسها للتلفظ. من هنا، ينبغي تبني وجهة نظر **الخطاب في اشتغاله**.

1-3-2 المسار التوليدي

1-3-2-1 الإطار النظري للمسار التوليدي

يعد المسار التوليدي نموذجا يحكم بشكل تراتبي المقولات المشغلة في الخطاب وذلك انطلاقا من تلك الأكثر تجريدا، البنيات الأولية إلى الأكثر تجسيدا، البنيات الصورية للخطاب.

وعليه، فإنه يسمح بموضعة مجموعة من البنيات الجاهزة في أثناء التلفظ، وفي علاقة بعضها ببعض؛ فهو بهذا المعنى ظل "للذاكرة" السيميائية لفاعل التلفظ في اللحظة التي يلفظ فيها. مثلا، إن مقولة [حياة/ موت] المنتمية إلى البنيات الدلالية الأولية تمفصل إلى [وصلة / فصلة] في البنيات السردية والعاملية، وذلك بفضل تعالق، في صلب المقولة الأولى، فاعل عامل قادر أن يدخل في وصلة أو فصلة ب/عن عامل موضوع يكون مضمونه "الحياة". وتكون، بعد ذلك، ملفوظات الصلة مجمعة لتشكل برامج سردية تخص، في المثال أعلاه، برامج الاحتفاظ، الفقدان، والتعويض التي تنتمي إلى البنيات السردية الثيمية. وتعتبر هذه الأخيرة في النهاية "صورية" عندما تتلقى تحديدات إدراكية، فضائية، زمنية وممثلية: يمكن أن تظهر، مثلا، المقولة الأولية [حياة/ موت]، في نهاية مسارها، تحت أنواع مرئية للضوء والظلام وتظهر أيضا، من خلال التنسيق مع التغيرات الزمنية، تحت شكل النهار والليل، أو الصيف والشتاء. إن هذا التوضيح المبسط الذي قدمه جاك فونتانيي يعمل على توصيف السيرورة التوليدية "الصاعدة" الخاصة ببناء الدلالة؛ وتكون السيرورة "النازلة" هي أيضا متوقعة لأنها تخص التحليل الملموس الذي ينطلق من الصور الملاحظة مباشرة لينتهي إلى المقولات المجردة المضمرة. إن المسار التوليدي هو إعادة تشكيل دينامية للطريقة التي بنيت بها الدلالة وتكثفت وفق مسار يقود من البسيط إلى المركب ومن المجرد إلى المجسد (الصوري) حيث يلامس الدلائل التي تتضمن التجليات اللسانية وغير اللسانية. ويمكن أن نميز بين مرحلتين يعبر من خلالها إنتاج دلالة الموضوع السيميائي ونعني بذلك التشكيل التدريجي للدلالة: البنيات السيميوسردية والبنيات الخطابية. إذا افترضنا في البداية أن كل منتوج يتضمن إنتاجا، فإننا نسلم أيضا بأن كل ملفوظ يفترض تلفظا. وعليه، فإن التلفظ

يعني أن يتبنى الفاعل اللافظ الإمكانات التي تزخر بها اللغة أو نظام الدلالة الذي يستعمله. من هذه المنطلقات، يحدد اللافظ (الفردي أو الجماعي) على أنه هيئة إنتاج يفترضها الملفوظ. وإذا أردنا أن نحدد تمييزا بين البنيات السيميوسردية والبنيات الخطابية، فإن ذلك لن يتم انطلاقا من التلفظ. تتضمن البنيات السيميوسردية مجموعة من الإمكانات الموجودة تحت تصرفه؛ إنها الذخيرة التي تشتمل على القيم والبرامج التي يمتح منها اللافظ لرواية قصته. وتنتصب البنيات الخطابية على هذه العتبة لتنتقي ما يفرضه المقام وتنظم هذه الإمكانات. من هنا يكون اختيار هذا العالم المرجعي أو ذاك. وعلى هذا الأساس أيضا يتم تسيير الأزمنة والفضاءات وتوزع الأدوار. ويمكن أن نقول أن البنيات السيميو سردية تعرض أقصى ما يوجد في التجريد وأهم ما تزخر به في سبيل تغذية دلالة القصة. وتناسب البنيات الخطابية الإخراج والتوزيع. ينبغي أن نميز في هذا السياق بين مستويين في البنيات السيميوسردية. في المستوى الأساسي، تنتصب الاختلافات التي تعمل على توليد الدلالة والقواعد التي ترتهن إليها المسارات بين الوضعيات المحددة. إن المربع السيميائي هو تمثيل لما يجري في هذا المستوى. وفي مستوى أكثر سطحية، فإن الوضعيات تتحول إلى قيم يتحرى عنها الفواعل، وتتحول المسارات إلى برامج سردية.

2-2-3-1 الاعتراضات المنهجية على المسار التوليدي

إذا تتبعنا المسار التوليدي في الاتجاه الصاعد أو النازل، فإنه لا يوضح لنا كيف يشتغل التلفظ، كيف يختار المقولات ويرتبها ويعدّها ويحرفها أو يخترعها.

3-2-3-1 البديل المنهجي:

ولتحقيق هذا، ينبغي أن نلتمس أدوات أخرى، ونقصد بذلك معرفة الإشارية التلفظية[1] praxis énonciative. إن النظر إلى التلفظ على أنه إشارية يعني الإقرار بأن الأشكال الخطابية المهيأة انطلاقا من المقولات المنظمة في المسار

---

(1) تنطي الإشارية التلفظية مجموع العمليات التي من خلالها يستدعي، كل تلفظ خصوصي، وينتقي، ويحرك ويحول، يخترع أو يعيد اختراع النصوص، الأشكال، الموتيفات، وبصفة عامة الكيانات السيميائية. انظر:

– J. Fontanille , Op, p. 131.

التوليدي يمكن أن تظهر من وجهة نظر الخطاب في اشتغاله كأشكال خاصة به (. . .). وإذا أردنا أن نبرز الخطاب الأدبي في اشتغاله، وليس فقط في انفصال بنياته الشكلية عن التلفظ، ينبغي أن تتصدر وجهة نظر الإشارية التلفظية المسار التوليدي.

3-3-1 السردية

يحدد غريماس السردية على أنها متتالية من الحالات المسبوقة و/أو المتبوعة بتحويلات.

1-3-3-1 الاعتراضات المنهجية على هذا التحديد.

إن المتتبع للحركة السيميائية التابعة لمدرسة باريس يلحظ، أن المعجم المعقلن لنظرية الكلام لم يتضمن مدخلا خاصا بالصيرورة. وقد لاحظ بيرنار بوتي سكوت أ. ج. غريماس وج. كورتيس عن هذه المسألة. وتعد الدراسة التي أعدها بوتي في 1984 من البحوث المتميزة التي قام بها في سبيل استجلاء بعض القضايا النظرية التي تمس الصعيد السطحي للنظرية السيميائية. ولتحقيق هذه البغية، انطلق الباحث من فرضية تطورية طبيعية مبنية أصلا في حقل لساني للتأكيد على إمكانية نقلها إلى حقل سيميائي لدراسة تحولات الأنظمة السيميائية. بهذه القفزة النوعية،يقدم بوتي قراءة جديدة للإرث الغريماسي يثبت من خلالها أن الصيرورة تعد قاعدة ضرورية لكل برنامج سردي، وأن الفاعل المنفذ الذي يحول الحالة قصد الدخول في وصلة بموضوع القيمة ليس في نهاية الأمر إلا سببا في التغيير(1).

---

(1) ب. بوتي، السيميائية : الصيرورة غير مستحبة /الجبل الأبيض يتفتت، ترجمة رشيد بن مالك في :

- البنية السردية في النظرية السيميائية، دار الحكمة، الجزائر، 2000، ص. 44-51. و انظر أيضا :

- Bernard Pottier, Un mal-aimé de la sémiotique :le devenir in Exigences et perspectives de la sémiotique. Recueil d'hommage pour A. J. Greimas,H. G. ruprecht éd,Amesterdam/Philadelphie,John Benjamins,1985,2 vol. ,pp. 499. 503 .

وقد تبنى هذه المسألة أيضا ج. كلود كوكي عندما أشار إلى أنه: "كان ينبغي النظر إلى العوامل في صيرورتهم دون الاكتفاء بالتحويل البسيط والميكانيكي للحالات"[1].

نلاحظ في نهاية هذا المبحث أن الدراسات السيميائية في الفكر الأوروبي المعاصر حققت نجاحا كبيرا على امتداد نصف قرن على وجه التقريب شهد مناقشات حادة بخصوص المكانة التي ينبغي أن يحتلها العلم الذي يتخذ المعنى موضوعا لدراسته. واستطاعت هذه المناقشات المؤسسة والمبنية على تحر جماعي أن تحرك الدوائر العلمية باستقطابها باحثين من مختلف الحقول المعرفية تمكنوا من خلال استثمار معارفهم من تأسيس تخصصات تدور في فلك السيميائية الناشئة "التي تحتاج إلى باحثين يعرفون كيف يتجنبون الآلية الفكرية ويجددون"[2].

استنادا إلى هذه القراءة الجزئية للنظرية السيميائية، نلاحظ أن السيميائية مرت عبر مخاض عسير، وأنها المحصلة الطبيعية لتجارب عديدة في البحث المتواصل؛ إذ تعبر كل تجربة عن مسار علمي لا تحقق فيه قيم إلا ويعاد النظر في قيم أخرى عبر التحري عن البديل للإشكاليات المطروحة وذلك من خلال الحوار المؤسس والبحوث الجماعية المتواصلة والقناعات العلمية الراسخة المبنية على ضرورة التخلي عن مسار علمي معطى كلما تبين أنه يفتقر إلى الحجة والبرهان.

2 *واقع وآفاق السيميائية في العالم العربي*

2-1 الحركة السيميائية في الدراسات العربية المعاصرة

لا نستطيع أن نقدم قراءة في مستقبل السيميائية في العالم العربي وعناصر إجابة استشرافية للمستقبل ما لم نعاين واقع البحث في الدراسات السيميائية الراهنة في ضوء المستجدات في الفكر الأوروبي المعاصر الذي حقق قفزة نوعية على

(1) تقديم ج. كلود كوكي في :ج. ك. كوكي، السيميائية مدرسة باريس، ترجمة رشيد بن مالك، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003، ص. 16.

(2) المرجع نفسه، ص. 17.

جميع الأصعدة على نحو ما وضحنا ذلك آنفا. ستقتصر دراستنا للحركة الناشئة في النقد العربي المعاصر على بعض العينات المأخوذة من: الجزائر، سوريا، المغرب، وتونس. ولئن لاحظ القارئ افتقاد البحث إلى الطابع التمثيلي، فإن لهذه المشكلة اعتبارات عديدة. **أولها:** انقطاع التواصل العلمي بين الباحثين العرب وفي أغلب الأحيان داخل البلد الواحد. وكان لهذا الوضع انعكاسات سلبية، حيث كثرت البحوث الفردية التي تعددت معها الخطابات النقدية واختلفت في مقاصدها العلمية. وأضحينا إزاء ترسانة من المصطلحات تعبرها سيميائيات لا يتبين القارئ حدودها ولا معالمها، وهي في جميع الحالات لا ترقى لأن تمثل تراكمات تقرأ كأحسن ما تكون القراءة. ومع ذلك، استطاعت بعض البحوث في مختلف البلدان العربية أن ترقى بالبحث إلى أعلى درجة من التفكير والتمثل الواعي والهادف إلى بناء استراتيجية بحثية تعمل على إفراز قيم علمية ستكون فاعلة لا شك في المسار الإيجابي الذي سيؤول إليه البحث السيميائي مستقبلا. كذلك فإنّ اقتصارنا على بعض العينات لا يقلل من شأن بحوث عربية أخرى ظهرت في مجلات مهمة (الفكر العربي المعاصر، فصول، علم النص،علامات، بحوث سيميائية...). إن هذا البحث المختصر لا يتحمل الإحاطة الشاملة لكل ما كتب في الحقل السيميائي. اقتصرنا فقط على العينة الموضوعة قيد الدرس لأن أصحابها يلتقون. نظريا وتطبيقيا في التوجهات المنهجية العامة للنظرية السيميائية مع تفاوت في المصطلحية المعتمدة وفي الأولوية التي يعطيها كل واحد منهم لهذا المستوى أو ذاك من النظرية. ويمكن أن نلاحظ أيضا أن هذه الدراسات بقيت وفية للسيميائية الكلاسيكية ولم تأخذ في الحسبان التطورات الجذرية التي تصدرت المبحث الأول الذي يشتمل على الاعتراضات المنهجية التي سجلها تلامذة غريماس بخصوص المربع السيميائي، المسار التوليدي، السردية. وهذا لا ينقص من الجهود التي بذلها الباحثون العرب في وسط رافض لهذا التوجه. وقبل أن نبدأ بقراءة هذه البحوث، ينبغي أن نشير إلى الدراسة الموسومة بـ مدخل إلى الدراسات السيميائية بالمغرب/

محاولة تركيبية للباحث محسن أعمار[1] الذي حاول أن يقدم فكرة عن البحوث السيميائية في المغرب وعن الإنجازات العلمية الراهنة في الكتب المنشورة والدراسات الأكاديمية غير أنه لم يقتف أثر كل دراسة، بل اكتفى بتقديمها تقديما مختصرا لا يلقى فيه القارئ الفروقات الجوهرية بين الباحث والآخر والتحولات العميقة التي يمكن أن نلمسها مثلا من خلال قراءتنا لكتابات الأستاذ سعيد بنكراد من أول كتاب (مدخل إلى السيميائيات السردية) إلى آخر دراسة لم تنشر بعد والموسومة بـــ ممكنات النص ومحدودية المنهج التي يعرض فيها قراءة نقدية في الطروحات المؤسسة لنظرية غريماس. وتكمن أهمية دراسة الباحث محسن أعمار في توجيه القارئ إلى الدراسات السيميائية الأساسية في المغرب وقواسمها المشتركة المتمثلة في:

- محاولة تقليص المسافة بين مفاهيم ومصطلحات مستمدة من سياقات ثقافية مغايرة للثقافة العربية، وبين معطيات النصوص الأدبية بحمولتها اللغوية والثقافية.

- ضبط المفاهيم، وتدقيق المصطلحات، وطرح النظرية قبل وضعها على محك التطبيق.

- نزوع الباحثين إلى اختيارات منهجية وطروحات نظرية تضع القارئ أمام ترسانة هائلة من المفاهيم والإجراءات، غير متداولة في لغته وفي سياقه الثقافي[2].

ويمكن أن تسحب هذه القواسم على الدراسات السيميائية العربية عموما.

ثانيها: أشرنا في بداية هذا البحث إلى أن الدراسات السيميائية شهدت إعادة نظر جذرية بدأت في بداية التسعينيات ثم لم تلبث أن توسعت. فما كان من البديهيات بالأمس أضحى في الحقبة الأخيرة موضع تساؤل وجدل؛ ولكنه جدل يهدف إلى صياغة حلول جديدة على نحو ما رأينا ذلك عند كورتيس الذي تراجع عن إنجازات اعتبرناها من الثوابت في وقت مضى، ولم نتوقع أبدا أنه سيعيد فيها

---

(1) في: علامات، مجلة ثقافية محكمة، العدد 20 مكناس / المغرب،، 2003،ص. 99-109.

(2) نفسه، ص. 106.

النظر؛ فحصلت عملية قلب أعطت الصدارة في التحليل لمسألة التلفظ بوصفها فعلا محدثا وصانعا للموضوع السيميائي. وإزاء هذه الهزات العنيفة التي حدثت على الصعيدين النظري والتطبيقي، وأفضت إلى ظهور سيميائية جديدة لجيل جديد، فإن الباحث العربي ظل يشتغل في ظروف خاصة ووفقا لقيود تسيجه في إطار له خصوصياته. فهو مطالب بالتفكير على جبهات عديدة وينبغي أن ينجز في الوقت ذاته بحوثا نفترض أنها تغطي قراءة وتمثلا، وترجمة، وتفكيراً كل ما أنجز من بحوث السيميائية قديمها وحديثها حول مختلف الممارسات الاجتماعية الدالة باللسان وغير اللسان مع مراعاة الخصوصيات المحلية في أثناء التطبيق على النصوص العربية. وهناك قناعات راسخة في الأذهان ما زالت تغذي الممارسة النقدية في كثير من المؤسسات التعليمية العربية؛ وعليه ينبغي أن تعرض الدراسة لحياة الشاعر وظروفه وأسلوبه الجزل وعاطفته الفياضة والجياشة، ليصدر بعد كل ذلك حكما على عاطفته. هل هو صادق في تعبيره أم غير صادق؟ نضيف إلى هذا الوضع المتردي الاختيارات التي ينبغي أن يحسم فيها الباحث. في الوقت الذي خطا فيه البحث الأوروبي خطوات عملاقة، ما زلنا ضائعين في متاهات المصطلح. كل باحث يترجم حسب ما يحلو له. ولم تتوصل البحوث السيميائية إلى بلورة خطاب علمي لا يلقى فيه أصحابه مشقة في تمرير المعارف السيميائية. نستثني من ذلك بعض الدراسات العربية الرائدة في هذا المجال التي حاول أصحابها تبسيط خطابهم إلى أدنى درجة ممكنة؛ همهم الوحيد في التعامل مع النظرية السيميائية أن يفهموا ما فيها من المعقد أحسن الفهم ويتمثلوه جيدا ليتسنى لهم بعد ذلك تبليغ ما فهموه وما تمثلوه في خطاب علمي يحكم سيطرته على المسائل المعقدة، يروضها ويبلغها أحسن تبليغ للقارئ.

ثالثها: إذا كانت الساحة النقدية قد عرفت تخلفا كبيرا في مجال ترجمة البحوث السيميائية، فإن السؤال الذي يطرح نفسه بحدة يتعلق بطبيعة النصوص الغزيرة التابعة لمدرسة باريس التي يقع عليها الاختيار والأولويات التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان في عملية انتقائها. هل نولي أهمية إلى النصوص الخاصة بتاريخ البحث

السيميائي أم نجنح إلى ترجمة البحوث النظرية والتطبيقية التي ظهرت قبل وفاة أ. ج. غريماس. وإذا احتفظنا بهذه الفرضية، فإننا لا نشك في أن هذا الاختيار سيفرز حركة نشيطة في الترجمة وسيرافقها جدل كبير وقراءات نقدية في مضمون هذه النصوص. وهي قراءات ستتم في جميع الحالات بمنأى عن المستجدات البحثية التي ظهرت بعد وفاة غريماس، وعن الاعتراضات على المسائل النظرية المنظور إليها على أنها حقائق في سيميائية الجيل الأول. وإذا افترضنا أن الاعتراضات العربية على طروحات غريماس مؤسسة ولا يتسرب إليها الشك، فإنها ستشيد أيضا بمنأى عن اعتراضات السيميائيين أنفسهم على طروحاتهم على نحو ما حصل ذلك لغريماس وكورتيس. إن إثارتنا لهذه المسائل صادرة أساسا عن قناعتنا بأننا وصلنا إلى طريق مسدود. ولحل هذه الإشكاليات، وحتى نأخذ فكرة جلية عن الوضع الذي سيؤول إليه البحث السيميائي، ينبغي أن نفكر مليا فيما كتب من بحوث وفي الجهود التي بذلت ولازالت تبذل وفي الحلول التي يمكن من خلالها سد الثغرات ومعاينة نقاط القوة، بكل موضوعية في هذه البحوث، التي يمكن أن تشكل قاعدة أساسية لجمع شمل الباحثين من جهة واستشراف المستقبل من جهة ثانية. من منطلقات هذه القناعة، حاولنا في القسم الثاني من هذه الدراسة أن نقف عند عينات محدودة من بعض الدراسات السيميائية العربية لتقديم قراءة جزئية نعتبرها محاولة متواضعة لا تهدف بأية حال من الأحوال إلى صياغة حلول نهائية للإشكاليات المطروحة على الصعيدين النظري والتطبيقي. حاولنا أن نثير فقط بعض الأسئلة بخصوص القضايا التي بدت لنا أنها جديرة بالطرح والمساءلة ونصوغ، في الوقت نفسه وكلما دعت الضرورة إلى ذلك، في شكل اقتراحات متواضعة، بعض عناصر الإجابة بخصوص هذه القضية أو تلك.

1-1-2 إشكالية ترجمة المصطلح

إن استشراف مستقبل الدراسات السيميائية العربية المعاصرة يمر حتما عبر إدامة النظر في المصطلحية المعتمدة في الخطاب العلمي ومعاينة الوضع بدقة من خلال تأصيل المصطلح بالرجوع إلى المفهوم في اللغة الأصل الذي يحدده ويتحدد

عبره. وفضلنا أن نأخذ كعينة في هذا المبحث الترجمة التي وضعها خليل أحمد وأوديت بيتيت لكتاب Les enjeux de la sémiotique لـ آن إينو الذي ظهرت ترجمته في سنة 1980[1] ومعجم المصطلحات الأدبية المعاصرة للباحث سعيد علوش. وأول ملاحظة يمكن أن نقيدها علىٰ النص الأول الذي ظهر في وقت مبكر جدا تتمثل في افتقاده إلى الإحالة على المصطلحية اللسانية التي سبقته. وتكاد تنسحب هذه الملاحظة على نسبة غير قليلة مِن النصوص الراهنة التي جاءت ترجمتها في غياب الاستفادة من الجهود المبذولة في هذا النوع من البحوث. لا شك أن الجهود الفردية ستؤدي إلى تضارب الخطابات النقدية وتضليل القارئ في كثير من القضايا المتصلة بالأطر المفهومية للمصطلح في علاقاتها بالسياقات التي ترد فيها. ولتوضيح هذه القضايا نبدأ بالترجمة التي وضعها خليل أحمد وأوديت بيتيت لعنوان Les enjeux de la sémiotique والذي جاءت على النحو الآتي:

مراهنات دراسات الدلالات اللغوية

إذا دققنا النظر في المفاهيم الممررة عبر هذا الملفوظ، فإننا نلاحظ أنها تغطي فقط جانبا من الجوانب التي تعنى بها السيميائية [الدلالات اللغوية]. يكفي أن ننقل هذا العنوان وكما جاءت ترجمته في اللغة الهدف لنتأكد من أنه ينزاح عن التعريف الذي وضع أصلا للسيميائية:

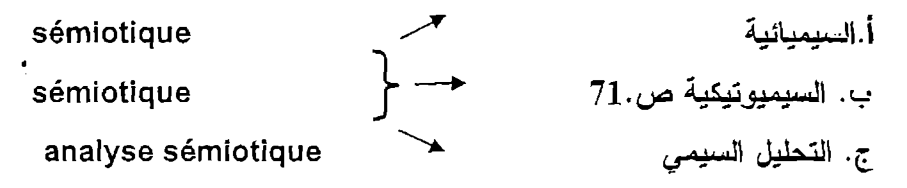
مراهنات	⇦	Enjeux
دراسات	⇦	études
الدلالات	⇦	significations
اللغوية	⇦	linguistiques

ويقودنا هذا التوزيع الذي أردنا أن نتحقق من تطابقه مع المفاهيم التي يمكن أن يجسدها العنوان في اللغة الهدف إلى صياغة الملفوظ الآتي: Les enjeux des

(1) آن إينو، مراهنات دراسات الدلالات اللغوية، ترجمة أوديت بيتيت وخليل أحمد، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، 1980.

études des significations linguistiques. إن الترجمة بهذا الشكل تقصي الدلالات المتجلية في غير اللسان من الاعتبارات السيميائية.

ويتضارب هذا التحديد مع التعريف الذي وضع للسيميائية ومجال اهتمامها. وهو مجال لا يتجاوز البحث في الدلالة من خلال تمظهرها في الأشكال اللسانية وغير اللسانية التي تنتجها المجتمعات البشرية. وتعد هذه الأشكال الدالة بامتياز ممارسات اجتماعية[1]. انطلاقا من هذا الحد، نقترح الترجمة الآتية: "مراهنات السيميائية". ويظل الإشكال قائما بخصوص ترجمة مصطلح carré sémiotique بـ مربع دلالي. ذلك أن الصفة دلالي توضع عموما كمقابل لـ sémantique. وقد قيدنا هذا التضارب أيضا في كتاب المصطلحات الأدبية المعاصرة[2] الذي جاءت فيه الترجمات مضطربة في كثير من المواضع ومفصولة عن سياقاتها وغامضة في مفاهيمها لا يدرك القارئ قوتها الإجرائية ولا يفهم علة وجودها ولا الغاية من الحديث عنها [انظر على سبيل المثال لا الحصر المواد التالية: السيميائية (ص. 69)، المربع السيميائي (ص. 70)، البنيات السردية (ص. 65)، القيمة (ص. 105)]. وقد لمسنا من خلال قراءتنا لهذا المعجم تضاربا كبيرا في الترجمات. ونكتفي، فيما يلي، بذكر بعض العينات:



إن قراءة سريعة في هذه العينة تقودنا إلى الإقرار بوجود ترجمات مختلفة [أ (ترجمة)- ب (تعريب) – ج (ترجمة)] للمصطلح الواحد. وإذا دققنا النظر في ج، فإن التحليل السيمي يحيل على مجموعة من الإجراءات التي تمس الحدود

(1) Jean – MarieFloch, Sémiotique, Marketting et communication, sous les signes, les stratégies , PUF , Paris , 2002, p. 4.

(2) سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، منشورات المكتبة، الدار البيضاء، 1984.

المعنوية للوحدات المعجمية. نلمس هذا الاقتراب المنهجي في التعريف الذي بناه غريماس على الحدود المفهومية للسيم[1] انطلاقا من مبدأ الاختلاف الذي أرسى قواعده ف. دي سوسير واستعمله للدلالة على أن المفاهيم المتباينة تكون معرفة ليس بشكل إيجابي من مضمونها وإنما بشكل سلبي عن علاقتها مع العناصر الأخرى للنظام. وقد تمثل غريماس هذا المبدأ داخل تصور جديد يقتضي فيه الاقتراب من المسألة الدلالية استيعاب الاختلافات المنتجة للمعنى، دون الاكتراث لطبيعتها في إطار بنية تدرك بحضور عنصرين (على الأقل) تربطهما علاقة بطريقة أو بأخرى. ويرتكز هذا التمثيل أساسا على فرضية هيالمسلاف والتي بمقتضاها يمكن فحص ماهية المضمون بالأدوات المنهجية المطبقة على صعيد التعبير. وعليه، فإن تمفصل العالم الدلالي إلى وحدات معنوية صغرى (السيمات) يناظر الفيمات المميزة لصعيد التعبير. ومن الواضح أن السيم بوصفه وحدة دلالية قاعدية لا يحقق وجوده إلا في علاقته بعنصر آخر. ولئن كانت وظيفته خلافية بالدرجة الأولى، فإنه يستحيل أن يدرك خارج إطار البنية.

على هذا الأساس، تنبني الترجمة على تمثل وفهم المصطلح في اللغة الأصل وإدراك سياقاته، والنظر في النصوص النظرية التي تغذيه، وضبطه بما يتوافق والإطار العام الذي يندرج ضمنه البحث. ويؤدي الابتعاد عن التوجهات الأساسية في العمل الترجمي إلى اضطراب في الفهم ينعكس سلبا في عملية تلقي الرسالة على نحو ما نلحظ ذلك في ترجمة النص الآتي:

«Le savoir n'a de sens dans une vie que s'il est un vouloir - savoir ou un faire - savoir , s'il fonde l'activité de l'homme en tant que quête»[2]

وقد ترجم خليل أحمد وأوديت بيتيت هذا المقطع على النحو التالي:

---

(1) A. J. Greimas , J. Courtés ,Sémiotique / Dictionnaire raisonné de la théorie du langage ,HU, Paris , 1979 ,p. 346.

(2) A. J. Greimas in Anne Hénault , Les enjeux de la sémiotique , PUF , Paris , 1993 , p. 5.

"إن المعرفة لا معنى لها في الحياة إلا إذا كانت إرادة معرفة أو إعطاء معرفة، تعيين فعالية الإنسان كاستجداء".

أما الأستاذ أحمد علي، فإنه يقترح في تقديمه كتاب المراهنات الترجمة الآتية:

"لا معنى للحياة، لمعرفة تتصف بإرادة الإنسان للمعرفة، أو بصناعة لها، لأن حيوية الإنسان: تتحقق بطلب المعرفة واكتسابها، ثم بمنحها لغيره".

إن قارئ هذه الترجمة لا يلقى نفسه في لغتها؛ وهي ترجمة حرفية لا تحيل على مضمون النص ولا تراعي الشروط الأساسية في الصياغة العربية التي جاءت مهزوزة وغامضة. حتى المصطلحات اقتفت الصياغة الفرنسية وأسقطت إسقاطا على البنية العربية مما جعلها تفتقد إلى التماسك التركيبي والدلالي. إن غريماس في هذا المقطع لا يشير، لا من قريب ولا من بعيد، إلى صناعة المعرفة أو إعطاء المعرفة. فهو يميز تمييزا واضحا بين المعرفة من جهة والرغبة في تبليغها من جهة ثانية. هكذا نلاحظ أن الترجمة حولت المعنى عن مجراه الطبيعي. يحدد غريماس في هذا المقطع الشروط الأساسية لوجود المعرفة، وهو وجود يخضع إلى برنامجين أساسيين:

- يتحقق البرنامج الأول بتأسيس فاعل ممتلك للرغبة في إقامة وصلة بالمعرفة، ومن ثم، فإن فعله [نشاطه] ينضوي داخل عملية التحري المسخرة لسد الافتقار réparation du manque.

- يتحقق البرنامج الثاني عبر فاعل مالك لرغبة في تبليغ المعرفة. بالإضافة إلى هذا، فإن الباحث ترجم النص ترجمة حرفية دون أن يكترث في ذلك للجوانب النظرية للمصطلح. إن وضع الاستجداء كمقابل لـ quête بعيد كل البعد عن السياق الدلالي الذي سخره غريماس لوضع الشروط الضرورية المؤدية إلى امتلاك أو تبليغ المعرفة. ذلك أن الاستجداء في الاصطلاح اللغوي مشتق من:

جدا فلانا وعليه جدوا: أعطاه،

جداه جديا: سأله الجدوى،
اجتداه، استجداه: طلب منه الجدوى[1].

ولئن كان الاستجداء، في بعده الدلالي، يفتقد إلى الفاعلية، فإن المستجدي يحتل دائما وضع فاعل حالة فاقد لموضوع القيمة. من هنا وجب أن نفكر في مصطلح آخر يحقق الفاعلية في منظورها السيميائي. من خلال معاينتنا للمصطلحية المعتمدة في بعض البحوث السيميائية العربية، فإننا نرجح استعمال التحري كمقابل لـــ. quête فهو، من جهة، يتوافق مع ما ينسب عادة من فاعلية للفاعل المنفذ sujet opérateur، وينسجم، من جهة أخرى، مع الوحدات المعنوية التي يحملها التحري على نحو ما نلحظ ذلك في اصطلاحه اللغوي:

حرى الشيء، تحراه وتحرى عنه: اتجه نحوه[2]. إن المسار الدلالي المحقق في /التحري/ يناظر تماما التعريف الذي وضعه غريماس لمصطلح quête الذي يستعمل للدلالة على **تنقل الفاعل في اتجاه موضوع القيمة [la quête est le déplacement du sujet vers l'objet]**[3]. بناء على هذا، يمكن أن يترجم المقطع السابق الذكر على النحو التالي: "لا معنى للمعرفة في الحياة إلا إذا جسدت الرغبة في تلقي أو تبليغ المعرفة، وأسست نشاط الإنسان بوصفه تحرياً... ".

وإذا انتقلنا إلى موضع آخر من هذا الكتاب، فإنه يستبين للقارئ أن الباحثين لم يوليا أهمية إلى الجهود العربية المبذولة في مجال ترجمة المصطلح. ولئن كنا مدركين عمق الاختلافات القائمة بين الباحثين العرب بخصوص هذه المسألة، فإنه لا ينبغي أن يتذرع بهذه الحجة لإقصاء هذه الجهود. إن المتتبع للترجمات العربية في مجال اللسانيات والسيميائيات، يدرك لا محالة أن نسبة متواضعة منها تكاد

---

(1) إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، دار الدعوة، استانبول، تركية، 1989، مادة جدا.

(2) المرجع نفسه، مادة حرى.

(3) A. J. Greimas ,J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, HU, Paris, 1979 , p. 305.

تكون مشتركة بين الباحثين. لا يهم إن كان هذا الإجماع صادرا بشكل عفوي. إن المهم في كل هذا وذاك هو أن نتجاوز الاختلافات ونستثيق بما يجمع الباحثين ويعبئ طاقاتهم لتوحيد المصطلح. إن مستقبل السيميائية العربية يظل مرهونا في بعض جوانبه بهذه الرغبة في درك جوهر الاختلافات والقيام بمسح شامل لما أنجز والوقوف عند القواسم المشتركة في البحوث العربية الراهنة.

2-1-2 موقع البحوث السيميائية من الدراسات النقدية العربية المعاصرة

2-1-2-1 اعتبارات أولية

ستركز دراستنا في هذا المبحث على بعض البحوث السيميائية العربية التي استطاعت أن تقدم للقارئ العربي رؤية واضحة حول السيميائية بعامة وخطاب أ. ج. غريماس بخاصة. وقد حاولت هذه البحوث بقدر الإمكان أن تتجاوز بعض المعضلات المفهومية والصعوبة الفعلية في النص السيميائي الأوروبي نفسه، والتي تضاعف المشاكل على الترجمة العربية بسبب الاختلاف المرجعي، في سبيل إرساء قنوات الاتصال بين هذه المعرفة الجديدة والقارئ العربي. وقد أدرك هؤلاء الباحثون:" أن النقد العربي الحديث ظل منذ زمن طويل بعيدا عن قراءة "ماهية النص" وظل سنوات طويلة ربما حتى نهاية السبعينات يدور حول "وظيفة النص" التي تعد أسهل بكثير من الكلام عن الطبيعة لهذا تأخرت استفادة النقاد العرب من المنهج السيميائي في تحليل النصوص"[1]. إن هذه البحوث التي وقع عليها اختيارنا ظهرت في ظرف تحولت فيه" بعض التطبيقات السيميائية العربية إلى مجموعة من الخطاطات الصورية الشكلية وبالتالي: يبدو لنا النص كما لو كان بلا دم ولا حركة للحياة فيه. حيث يتم تطبيق المصطلحات والخطاطات الأوروبية بشكل ميكانيكي وبمرجعيتها الأوروبية دون الاهتمام بعملية التليين والهضم من أجل التواصل مع القارئ العربي ودون معاناة مع النص ذي المرجعية الشرقية مثلا. وهذا كله خلق

(1) د. عز الدين المناصرة، السيميائيات. . . و الأدب/قراءة مونتاجية، في:

رشيد بن مالك، عز الدين المناصرة(مراجعة وتقديم) السيميائية، أصولها وقواعدها، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2002، ص. 58.

نوعا من الهروب لدى القراء (...) مع أن إحدى دعامات السيميائية هي التواصل"[1]. إن هذه التطبيقات "السيمائية"، كما أشرنا إلى ذلك في بداية هذا البحث، ضللت القارئ العربي الذي اختلطت عليه السبل وأضحى فاقدا للنقاط المعلمية التي تقوده إلى التمييز بين هذا التيار أو ذاك. لهذه الاعتبارات كليا، حاولنا في هذا المبحث أن نقف عند حدود تيار واحد، وتحديدا السيميائية مدرسة باريس لنكشف عن نقاط القوة لبعض البحوث وعن النتائج العلمية المحققة وعن الجهود المعبأة لإقامة تواصل حقيقي مع القارئ العربي من خلال فهم السيميائية في مظانها وتمثلها والاشتغال على الخطاب السيميائي الناشئ وترويضه ليكون جديرا بقراءة لا يلقى القارئ صعوبة في تلقي هذه المعرفة الجديدة على الفكر النقدي العربي المعاصر.

2-2-1-2 قراءة في بعض البحوث السيميائية العربية

إن اختيارنا لإنجازات عبد الحميد بورايو، وسعيد بنكراد ومحمد الناصر العجيمي ومحمد القاضي صادر عن قناعتنا بأن هذه البحوث تعكس بشكل نسبي الجهود التي تبذل في سبيل الارتقاء بالنقد العربي من الرؤية المعيارية إلى الرؤية العلمية، وتعكس أيضا الطاقات التي عبأها أصحابها لقراءة وفهم التوجهات المنهجية في تحليل النصوص السردية من منظور سيميائي. وفي أثناء التصدي لهذه النصوص، تعددت الممارسات النقدية من باحث إلى آخر واختلفت السبل والغايات المنهجية في التحليل. من ذلك أن نصوص عبد الحميد بورايو وسعيد بنكراد لم تتعامل مع السيميائية على أنها غاية في حد ذاتها بل تبنتها لأنها وسيلة مسخرة لفهم الإشكاليات التي يطرحها التصدي للمعنى المتخفي في الممارسات الإنسانية الدالة والمجسدة في اللسان وغير اللسان. إن قراءة سريعة في هذه البحوث تجعلنا ندرك أن الباحثين اشتغلا على الخطاب النقدي وروّضاه بشكل تفاديا فيه كل تعقيد مصطلحي وجنحا في ذلك إلى التبسيط دون أن يتخليا في صناعة نصوصهم عن الإطار السيميائي العام الذي يفرضه مقام البحث. أما نصوص محمد الناصر

---

(1) نفسه، ص. 59.

العجيمي ومحمد القاضي، فإنها وصلت إلى درجة كبيرة من الزخرفة المنهجية. وقارئ هذه البحوث يخرج بانطباع عام مفاده أن خطابها النقدي الذي عوم بترسانة من المصطلحات لم يصنع في سبيل إقامة وصلة علمية حقيقية بالقارئ بل أنجز في جوانبه التطبيقية بهدف تقديم الإجراءات السيميائية على أنها عناصر ديكور وغاية في حد ذاتها. من هنا اتسمت هذه الإجراءات بالتطبيق الآلي على النصوص.

3-2-1-2 الرهان التأويلي في كليلة ودمنة

تنحصر الأسباب التي تقف وراء اختيارنا لهذه البحوث في اعتمادها بعض حكايات كليلة ودمنة موضوعا للممارسة النقدية التي اختلفت من باحث إلى آخر في **طريقة التحليل** أولا وفي **التخريجات الدلالية** ثانيا. يشكل **التحليل السيميائي للخطاب السردي**[1] للباحث عبد الحميد بورايو حدثا نقديا في الجزائر واستطاع أن يستثمر الإنجازات البروبية من منطلقات سيميائية. همه الوحيد في كل ذلك الإحاطة الدلالية بحكاية **الحمامة المطوقة** استنادا إلى بنيتها ووفقا لتقطيع نصي يتصدرها. ولبلوغ هذه الغاية، نزع إلى أن تكون السردية هدفا للتحليل "غير أن هذه السردية لا يمكن القبض عليها وعلى مكوناتها، كما يتعذر الإمساك بمظاهرها إلا من خلال الخطاب"[2]. لهذا الاعتبار المنهجي، انطلق من دراسة البنيات الخطابية الآتية:

- الحقل المعجمي
- المقطوعات الخطابية
- التجسيدات الخطابية

إن أهم ما تتميز به هذه الدراسة، هو أن الباحث التزم حدود النص وأدرك مستوياته واستطاع من خلال اشتغاله على اللغة صناعة خطاب نقدي يوفق فيه بين القيود التي يفرضها الجهاز السيميائي وتطلعات القارئ العربي إلى نص نقدي ييسر له سبل الاتصال بالمناهج الحداثية.

---

(1) عبد الحميد بورايو، التحليل السيميائي للخطاب السردي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003.

(2) المرجع نفسه، ص. 69.

يمكن أن نشير إلى أن الباحث في معرض حديثه عن النقص[1] ، لم يول أهمية إلى القراءة التي قدمها غريماس للمشروع البروبي، الذي يعتبر فيه الفعل أساس تعريف الوظيفة. إن الدارس كما يرى ذلك غريماس، سيقف محتارا أمام التناقض الذي يميز الوظيفتين: "فإذا كان رحيل البطل، باعتباره شكلا من أشكال النشاط الإنساني، يعد فعلا، أي وظيفة، فإن النقص (manque) لن يكون كذلك، ولا يمكن التعامل معه كوظيفة بل هو حالة تستدعي فعلا"[2]

وبالإضافة إلى هذا، فإن الباحث على الرغم من أنه تمكن من درك الإطار التلفظي (دبشليم/بيدبا) لحكايات كليلة ودمنة في أثناء تأويله الدلالي لحكايتي **الحمامة المطوقة** وقصة **الحمامة والثعلب ومالك الحزين**، فإنه في الوقت نفسه عزله من السياق التحليلي واعتبره من خارجيات النص:

"هذا بالإضافة إلى الحكم العام المستخلص من القصة –المثل التي جاءت لتجسد حكما ورد كمقدمة للنص لم ندمجها في التحليل على لسان الملك "دبشليم" وهو يتوجه بالخطاب لراويته "بيدبا" قائلا: "فحدثني،إن رأيت عن إخوان الصفاء كيف يبتدئ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض"[3].

"وهو نفس الموقف الانتقادي الذي جاء على لسان بيدبا الفيلسوف الراوي الخارجي لهذه القصة"[4].

إذا استندنا إلى النص، فإننا لا نستطيع أن نحدث انقطاعا في المتصل الخطابي لكليلة ودمنة، وننظر إلى الحكايات نظرة خارجة عن هذا المتصل المنضوي داخل الجهاز التلفظي الذي ترتهن الحكايات إلى وجوده. إن بيدبا ودبشليم حاضران في

---

(1) المرجع نفسه، ص. 73

(2) سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش،1994.

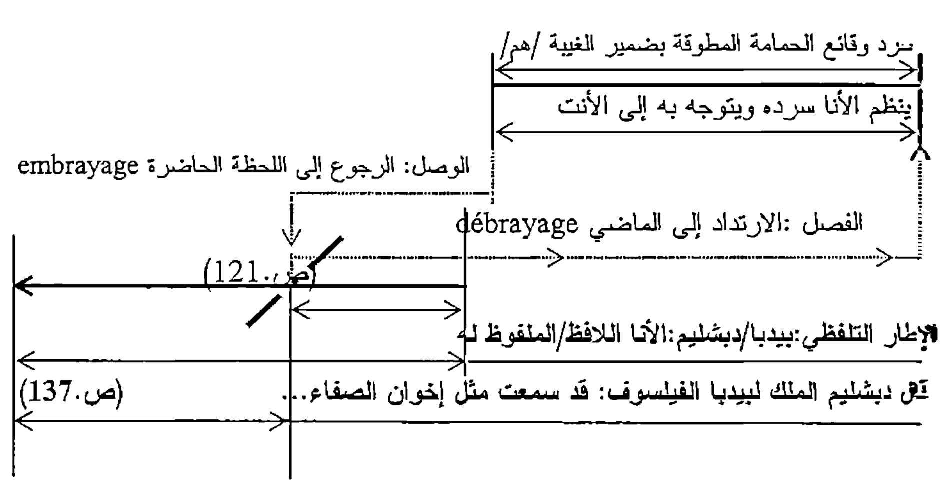
- A. J. Greimas,Les acquis et les projets in J. Courtés,Introduction à la sémiotique narrative et discursive ,H. U,Paris,1976,P. 7-8

(3) عبد الحميد بورايو، المرجع السابق، ص. 79.

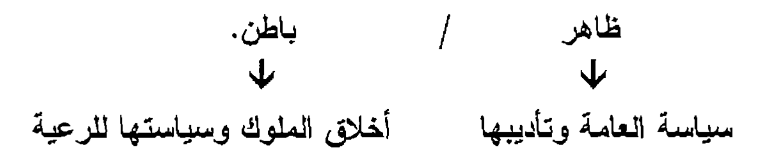
(4) المرجع نفسه، ص. 95.

النص الحكائي، نستدل على ذلك بعلامات التلفظ التي تحيل عليهما: قال بيدبا: "زعموا أنه كان بأرض سكاوندجين. . ."

يمكن أن نمثل البنية الشكلية لهذا الملفوظ على النحو الآتي:



إن بيدبا في احتلاله موقع اللافظ (أنا) يسرد الوقائع بضمير الغيبة (هم) ويتوجه من داخل النص بخطابه إلى الأنت (الملفوظ له). تأسيسا على هذا، فإن إدراك الحمولة الدلالية للنص، لا يمكن أن تسيج في إطاره. فهي تابعة للعقد التلفظي المبرم بين بيدبا ودبشليم: "وقد أحببت أن تضع لي كتابا بليغا تستفرغ فيه عقلك يكون **ظاهره سياسة العامة وتأديبها، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية**..."[1]. وعليه، فإن تأويل الحكايات "المروية على لسان الحيوان" لا يمكن أن ينأى عن التمفصل الدلالي الذي يغذي الحكايات وبقطع النظر عن البعدين الاجتماعي والسياسي:



---

(1) بيدبا، كليلة ودمنة، ترجمة عبد الله بن المقفع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1983، ص. 25.

بقي أن نشير في نهاية هذه القراءة إلى أن البنية العميقة للحمامة المطوقة على النحو الذي قيدها الباحث عبد الحميد بورايو، لم ترتكز على النتائج المحققة في دراسة البنية الخطابية والبنية السردية للنص. وعلى الرغم من أنه انتهى إلى بعض الدلالات الفرعية من خلال تحكمه في التقابلات الأساسية للنص وحصره لمختلف الصور التي تعمل على تجلية الوحدات المضمونية، فإنه شيد البنية العميقة على "مفهوم فلسفي كان سائدا زمن روايتها يقوم على ثنائية الروح/الجسد"[1]. وقد جاءت هذه الثنائية مفروضة على النص فرضا وغريبة عنه ومتنافرة مع ما سبق من تحليل، وليس لها ما يبررها في الحكاية.

أما الأستاذ محمد الناصر العجيمي[2]، فقد حاول في إطار التوجه السيميائي وتحديدا نظرية غريماس أن يقدم دراسة تتوخى الدقة في ضبط المفاهيم الإجرائية والمصطلحية السيميائية العامة، فخصص لذلك قسما نظريا عرض فيه لمستويات التحليل في النظرية السيميائية. فنظر إليها على أساس أنها حقائق ثابتة دون أن يلزم نفسه في ذلك مناقشة بعض القضايا الجديرة بالطرح والمساءلة. وانتقل في القسم الثاني من هذه الدراسة إلى تحليل حكاية الأرانب والفيلة. وهو نص مأخوذ من كليلة ودمنة. وقد التزم الباحث خطة واضحة في فحص النص. بدءاً من تقطيعه وتحديد مستوياته والنظر في بنيته على الصعيدين السطحي والعميق. ولاحظنا في أثناء قراءتنا لهذه الدراسة أن الباحث يقوم باستعراض ترسانة من المصطلحات لا نلقى فيها ما يتوافق مع الترجمات المستعملة في الخطاب السيميائي العربي. ويعترف الباحث نفسه بأنه واجه "القدر الكبير من المصطلحات بمجهود فردي أساسا"[3]. إن هذه الطريقة في التعامل مع المصطلح ستؤدي من دون أدنى شك إلى تضخم لا يساعد في جميع الحالات على إقامة وصلة علمية حقيقية بالقارئ. وتوحي الطريقة التي تم بها التعامل مع النص سيميائيا بأن الباحث بذل مجهودا خياليا حتى يكون

---

(1) عبد الحميد بورايو، المرجع السابق، ص. 82.

(2) محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي /نظرية قريماس(Greimas)، الدار العربية للكتاب،تونس، 1993.

(3) المرجع نفسه، ص. 17.

التحليل وفيا للنظرية التي وضعت أصلا لفض الإشكالات التي يطرحها النص السردي على وجه الخصوص.

وقد لاحظ الباحث في خاتمة هذا البحث أن القارئ "لا يحتاج إلى نفاذ رؤية- ليتبين من خلال الفيلة – صورة الحاكم المتسلط الطاغية. والأرجح أن المعني هو أبو العباس أو أبو جعفر المنصور الذي يتهدده مصير شبيه بمصير الفيلة، مصير يؤول إليه كل من أسس حكمه على "الظلم"، خارقا بذلك العقد المنظم لعلاقات الحاكم بالمحكومين، محدثا تصدعا في توازن الكون المحكوم بقواعد أزلية"[1].

إنه يتعامل مع عبد الله بن المقفع كما لو أنه كاتب النص، فينزع بتأويله مباشرة إلى المجتمع العربي الإسلامي وينظر من خلال النص إلى العلاقة التي تربط الحاكم بالمحكوم في هذا المجتمع. يمكن أن يستغل، منهجيا هذا الإسقاط، في مناقشة **اختيار** عبد الله بن المقفع **لترجمة نص تعمل مضامينه، انطلاقا من تحليله، على تجلية العلاقة بين الملك والرعية في المجتمع الهندي**. ويتجه التأويل بعد ذلك إلى إدراك القيم من حيث القواسم المشتركة بين المجتمعين في إشكالية تسيير الفعل السياسي.

وإذا نظرنا في حكاية **الأرانب والفيلة** على أنها جزء من الأجزاء السردية التي تتشكل منها كليلة ودمنة، فإنها على المستوى التداولي مسخّرة لإقناع ملك الغربان بصحة الطرح العقلاني الذي ينزع إليه الغراب للرد بإعمال الفكر والروية على الهجمة التي قامت بها جماعة البوم. إن النزوع العقلاني بوصفه قيمة أساسية في معالجة الغزو الخارجي أفضى إلى تحقيق الانتصار العسكري وإبطال مفعول كل قوة خارجية تطمح إلى زعزعة الاستقرار الداخلي لمجتمع الغربان. ينبغي أن نرقى بالقيمة الأساسية في هذه الحكاية على المستوى التداولي ونضعها في قلب الحوار الدائر بين الملك دبشليم والفيلسوف بيدبا الذي يسعى إلى أن يمارس فعله الإقناعي على الملك. وتعمل العملية الإقناعية على تجلية القيم الأساسية المسجلة على المستوى العميق لحكايات كليلة ودمنة التي تجري مجرى الخطاب الحجاجي

(1) محمد الناصر العجيمي، المرجع السابق، ص. 140.

المسخّر لإقناع الحكام بأهمية الحوار والمشاورة في المسائل الاستراتيجية التي تخص شؤون الرعية ومستقبل البلد.

وفي اتجاه مخالف لتأويل محمد الناصر العجيمي، يذهب محمد القاضي في نهاية تحليله لـ **مثل الأسود وملك الضفادع** من كليلة ودمنة إلى أن الوضع يتسم منذ البداية بالتعقيد: "رجل ينتمي إلى أمة مغلوبة، يغير انتماءه إلى الأمة الغالبة، ثم ينقل من أمته القديمة هذا الكتاب إلى أمته الجديدة. والنص ينضح بهذا الواقع جيئة وذهابا. فهو في لغة الغالب، ظاهره نصحه له وتثبيت لأقدامه، ولكنه من أصل فارسي باطنه تهكم وتحيل وخداع"[1].

إن هذا التأويل منزاح تماما عن النتائج التي أفضى إليها التحليل الذي قدمه محمد القاضي لحكاية **الأسود وملك الضفادع**. وتعد هذه النتائج محصلة لتحليل تقف وراءه مقاربات منهجية متنوعة ومتضاربة أيضا وتختلف من حيث الأهداف المسطرة وتفتقد إلى إشكالية بحثية واضحة. ينظر الباحث في بداية الأمر في ملفوظ الحالة فيضبط من منطلقات سيميائية علاقات الفاعل الفصلية والوصلية بالطعام، ثم يزخرف ذلك بنموذج عاملي مضطرب، مفتقد إلى الأسهم، وبالتالي إلى معنى. ولكنه سرعان ما يغادر البنية السطحية والاتجاه السيميائي، دون تقديم أي تبرير منهجي، ليدرج بحثه في إطار آخر مغاير تماما، فيتحدث عن الإحداثيات الزمنية وأساليب القص وأنماط الرؤية في النص من منظور جيرار جينيت. وفي مستوى الدلالة، يخرج من النص ليثير قضايا مفتعلة، متعلقة بانتماء عبد الله بن المقفع ونواياه المبيتة. و يكفي أن نلقي نظرة في مقدمة كتاب كليلة ودمنة لندرك الأسباب التي حركت الملك كسرى أنو شروان لطلب هذا الكتاب النفيس. وإذا وقع اختيار عبد الله بن المقفع بوصفه رجلا مثقفا واعيا بالأبعاد السياسية، على هذا الكتاب، فإننا نتساءل عن المصدر الذي أهل الباحث لامتلاك معرفة دقيقة بباطن عبد الله المقفع المتسم **بالتهكم والتحايل والخداع**.

---

(1) محمد القاضي، تحليل النص السردي، دار الجنوب للنشر، تونس، 1997،ص. 74.

2-1-2-4 ممكنات النص ومحدودية النموذج

يعد الأستاذ سعيد بنكراد وجها من الوجوه النقدية البارزة في المغرب. وقد سخر كل جهوده لفهم السيميائية مدرسة باريس نظريا، فألف في ذلك بحوثا مهمة يعرض فيه للإنجازات السيميائية وأصولها وأسسها الإيبيستيمولوجية ومجالات اهتماماتها[1]. وقد تنوعت مجالات تطبيق السيميائيات عند الباحث: الرواية، الصورة الإشهارية، الألبوم الفوتوغرافي. ولئن كانت زاوية النظر تختلف من شكل إلى آخر، فإن الاختلاف، سواء كان مبررا أم لا، يهدف إلى **الإحاطة بالشروط التي من خلالها يتم إنتاج وإدراك الدلالة.**

إن المتتبع للمسار العلمي للباحث سعيد بنكراد، يدرك أنه شهد تحولا جذريا في آخر نص كتبه "ممكنات النص ومحدودية النموذج"[2]. ويقدم فيه مجموعة من الاعتراضات على الأسس النظرية للسيميائيات السردية.

إن النتائج التي انتهى إليها، على أهميتها، لم تنهض على الإحاطة الشاملة باعتراضات السيميائيين أنفسهم على بعض الطروحات النظرية (انظر في هذه الدراسة: التوجهات السيميائية بعد 1992). ولو تم فعلا الاطلاع على هذه البحوث لنحت الدراسة نحوا آخر. يقول الباحث في معرض حديثه عن التأويل السيميائي للنصوص" ولهذا فإن القول بإمكانية الإحاطة الكلية بالدلالة النهائية للنص ضمن قراءة واحدة شاملة أمر في غاية الغرابة. فأبسط نص سردي لا يمكن أن يكون حاملا لدلالة واحدة ولا يمكن أن يكون تحققا كليا وشاملا لأي نموذج. إن قناعة من هذا القبيل تعني إلغاء دور السياقات الداخلية التي تخلقها الوحدات في غفلة من المؤلف نفسه"[3].

إن السيميائيين لم يتعاملوا أبدا مع النص على أنه يتضمن دلالة واحدة. ويأتي اعتراض الباحث، فيما يبدو، في الامتداد الطبيعي لموقف رولان بارث من النقد

---

(1) سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، 1994

- سعيد بنكراد، السيميائيات، مفاهيمها وتطبيقاتها، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003.

(2) سعيد بنكراد، ممكنات النص ومحدودية النموذج، مخطوط، المغرب، 2004.

(3) المرجع نفسه، ص. 8

الكلاسيكي: "يملك النص معنى وحيدا وواحدا، معنى حقيقيا، ومعنى نهائيا"[1]. إن متتبع سيميائية الجيل الأول والثاني، يدرك أنها قامت بالفعل على نسف الفكر الواحدي في الممارسة النقدية السيميائية وتشييد جهاز نظري كفيل ببناء دلالة النص من الداخل وانطلاقا من مستويات محددة في أثناء التحليل. ومن الواضح أن الممكنات الدلالية للنص مربوطة بزاوية النظر التي يتبناها الباحث وبالافتراضات التي يقدمها في أثناء تصديه للنص.

– نسجل في نهاية هذه الدراسة أن التفكير في مستقبل السيميائيات في العالم العربي يعد مغامرة صعبة حاولنا بقدر الإمكان الإشارة إلى بعض الأخطار المنجرة عنها من خلال طرح السؤال حول الممارسة السيميائية الراهنة وتسييج عناصر إجابة هي في جميع الحالات وجهات نظر تحتاج إلى مناقشة عميقة وصريحة وشفافة. إن استشراف المستقبل ليس فقط رفع البصر للنظر إليه وإسقاط أحلامنا وطموحاتنا المشروعة عليه، بل إنه درك لواقع البحث العربي بكل تفاصيله وتناقضاته. ولئن كان مستقبل السيميائيات العربية يمر حتما عبر إدامة النظر في مجموعة من القضايا أشرنا إلى البعض منها، فإنه يظل مرهونا بقدرة الباحث في أثناء تقويمه للحركة السيميائية على صياغة ملاحظات موضوعية، ويظل مرهونا أيضا بهذه الرغبة في تقليص الاختلافات بتنويع البدائل والقيام بمسح شامل لما أنجز والوقوف عند القواسم المشتركة في البحوث العربية الراهنة.

إن العينات التي وضعناها قيد الدرس والتحليل مكّنتنا من أخذ صورة، حتى ولو كانت جزئية، عن المستوى الذي وصلت إليه البحوث السيميائية وعن بعض الاضطرابات المنهجية التي تلقى حلولها في الحوار المؤسس والمتواصل. ومع كل هذا، فإنها استطاعت أن ترقى بالنقد العربي من الرؤية المعيارية إلى الرؤية العلمية وإلى أعلى درجة من التفكير والتمثل الواعي والهادف إلى بناء استراتيجية بحثية تعمل على إفراز قيم علمية ستكون فاعلة، لا شك، في المسار الإيجابي الذي سيؤول إليه البحث السيميائي مستقبلا.

---

(1) R. Barthes, Texte (théorie du) in Encyclopaedia Universalis ,Volume XV ,p. 1014.

بيبلوغرافيا البحث (مرتبة حسب ظهورها في النص)

1- Jacques Geninaska , **Et maintenant** ? in Mauricio Beuchot Pierre. Maria Pia Pozzato Jacques et autres, **Lire greimas** , PULIM . Limoges , 1997.

2- سعيد بنكراد، **مدخل إلى السيميائيات السردية**، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش،المغرب، 1994.

3- A. j. Greimas,Les acquis et les projets in J. Courtés, **Introduction à la sémiotique narrative et discursive,** HU,Paris,1976 .

4- A. J. Greimas , J. Courtés, **Sémiotique /Dictionnaire raisonné de la théorie du langage** , HU, Paris , 1979.

5- J. Courtés , **L'énonciation comme acte sémiotique** , Nouveaux actes sémiotiques ,Pulim,Université de Limoges, n°58-59,1998.

6- J. Fontanille , **Sémiotique et littérature / Essais de méthode,**PUF Paris , 1999.

7- Oswald Ducrot,Tzvetan Todorov, **Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage,** Seuil,Points,Paris,1972.

8- Roland Posner, **Signification et usage des connecteurs proposisionnels dans les langues naturelles** , Actes sémiotiques-Documents,n°56, Besançon ,1984.

9- ج. ك. كوكي، **السيميائية مدرسة باريس**، تقديم ج. كلود كوكي، ترجمة رشيد بن مالك، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003.

10- رشيد بن مالك، **البنية السردية في النظرية السيميائية**، دار الحكمة، الجزائر، 2000.

11- Bernard Pottier, **Un mal-aimé de la sémiotique :le devenir in Exigences et perspectives de la sémiotique.** Recueil d'hommage pour A. J. Greimas,H. G. ruprecht éd,Amesterdam/Philadelphie,John Benjamins,1985,2 vol.

12- آن إينو، **مراهنات دراسات الدلالات اللغوية**، ترجمة أوديت بيتيت وخليل أحمد، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، 1980.

13- Jean – **MarieFloch** , **Sémiotique , Marketting et communication, sous les signes , les stratégies** , PUF , Paris , 2002.

14- سعيد علوش، **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة**، منشورات المكتبة، الدار البيضاء، 1984.

15- Anne **Hénault** , **Les enjeux de la sémiotique** , PUF , Paris , 1993.

16- إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، **المعجم الوسيط**، دار الدعوة، استانبول، تركية،1989.

17- رشيد بن مالك، عز الدين المناصرة (مراجعة وتقديم) **السيميائية، أصولها وقواعدها**، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2002.

18- عبد الحميد بورايو، **التحليل السيميائي للخطاب السردي**، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003

19- بيدبا، **كليلة ودمنة**، ترجمة عبد الله بن المقفع،مؤسسة المعارف، بيروت، 1983.

20- محمد الناصر العجيمي، **في الخطاب السردي /نظرية قريماس (Greimas)**، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993.

21- محمد القاضي، **تحليل النص السردي**، دار الجنوب للنشر، تونس، 1997 .

22- سعيد بنكراد، **مدخل إلى السيميائيات السردية**، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، 1994

23- سعيد بنكراد، **السيميائيات، مفاهيمها وتطبيقاتها**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003 .

24- سعيد بنكراد، **ممكنات المنهج ومحدودية النص**، مخطوط، المغرب، 2004.

25- R. Barthes, Texte (théorie du) in **Encyclopaedia Universalis**, Volume XV.

26- A. J. Greimas , J. Courtés , **Dictionnaire raisonné de la théorie du langage**, 1979.

قراءة سيميائية في كليلة ودمنة
لعبد الله بن المقفع

⓪. اعتبارات منهجية

فضلنا في هذا البحث أن نضع قيد الدرس والتحليل **كليلة ودمنة**[1] وتحديدا نص النصيحة التي أسداها الفيلسوف الهندي للملك دبشليم. إن هذا الاختيار صادر عن قناعتنا بأن حكايات **كليلة ودمنة** لا يمكن أن تفهم إلا إذا قرأنا قراءة معمقة النصيحة التي نعتبرها **النص/الإطار** الذي يغذي دلاليا الحكايات. ومن ثم، فإن أي تأويل دلالي لهذا النص السردي المروي على لسان الحيوان، يخرج عن **النص/ الإطار ومحاوره الدلالية الكبرى**، سيضلل القارئ لا شك، وينقله إلى مواقع مهزوزة تفتقد إلى القواعد المؤسسة التي ينهض عليها النص في شموليته. ومن الواضح أن النص الإطار سيعمل، كما سنوضح ذلك في أثناء التحليل، على تجلية مجموعة من القيم سيسخرها بيدبا، امتثالا في ذلك لرغبة الملك، لصناعة عالم دلالي تشيد عليه الحكايات.

وقد قسمنا النص الذي يتوزع عبر: قبل / في أثناء/ بعد، إلى ثلاث مقطوعات أساسية:

1. تتحدد المقطوعة الأولى استنادا إلى الإحداثيات الزمنية والفضائية بـ قبل ذهاب بيدبا إلى القصر.
2. يتصدر المقطوعة الثانية انتقال بيدبا إلى القصر وإسداء النصيحة للملك.
3. وتبدأ المقطوعة الثالثة بعد تبليغ بيدبا الرسالة للملك.

---

(1) بيدبا، كليلة ودمنة، ترجمة عبد الله بن المقفع، الطبعة الرابعة، مؤسسة المعارف، بيروت، 1983.

وعلى الرغم من أن هذا التقطيع اعتباطي لتداخل المستويات وتعالقها في الوقت نفسه، فإنه سيمكّن القارئ من درك المحطات الأساسية التي تبرز، من جهة، أداءات بيدبا في رحلته العلمية الكشفية بكل تفاصيلها ومنعرجاتها ومحنها ومن جهة ثانية، سوء تقدير الملك لهذه الأداءات، واعترافه في النهاية، بعد ارعوائه، بقيمتها، وأهميتها في تشييد فعل سياسي يحتكم إلى العقل.

حتى نوضح الآلية التي يشتغل بها الخطاب الحجاجي في النص، ينبغي أن نسلم في البداية بأن الموضوعات السيميائية (**كليلة ودمنة** على سبيل المثال) المنتقلة من هيئة (اللافظ) إلى أخرى (الملفوظ له) ترتهن في وجودها إلى فعل تلفظي. من هذه المنطلقات سنسعى إلى دراسة نص النصيحة.

1. التحريك/الاستراتيجية الخطابية في النص

تشكل النصيحة رهانا حقيقيا لبيدبا الذي يتحمل لوحده مسؤولية تغيير النظام السياسي من الداخل وبطرق سلمية. ويهدف هذا الفعل إلى رد الأمور إلى سابق عهدها وتشييد الاستيثاق بين الملك والرعية. وقد جاء وصول دبشليم إلى سدة الحكم نتيجة لتمرد الخاصة والعامة على ملك سابق أوصله الاسكندر ذو القرنيين دون استشارة الرعية إلى السلطة مباشرة بعد غزوه للهند. ولما كان فعله السياسي معبأ لإذلال الرعية، فإن هذا الملك الذي يعد من ثقات الاسكندر سرعان ما عزِّل. إن تمليك الرعية لدشليم مسيج في إطار عقد ائتماني يتم بموجبه تشييد عالم تحكمه مجموعة من القيم جاءت لتسد وضعية افتقار سابقة ناتجة عن سوء التسيير. وبعد أن استوسق له الأمر واستقر له الملك وأحكم سيطرته على الرعية، يخرق دبشليم العقد فيحدث بذلك هوة عميقة بينه وبينها. نلمس ذلك في الأدوار الجديدة التي اضطلع بها دبشليم: **طغى**، و**بغى** و**تجبر** و**تكبر**[1]. وقد حركته هذه السطوة للقيام بأفعال عدوانية: عبث بالرعية، استصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم[2]. في هذه

---

(1) ص. 11 (من الآن فصاعدا، سنحيل على نص كليلة ودمنة بالصفحة فقط)

(2) ص. 11

اللحظة السردية، يفقد الراوي الأمل في تغيير الوضع وحتى في إمكانية التفكير في اقتراح البديل والخروج من هذا المأزق الذي يهدد الإنسان في وجوده، وكل المؤشرات السردية التي ساقها ترشحه للتدهور وبقائه على النحو الذي ابتغاه دبشليم: "فهابته الرعية، وكان لا ترتقي حاله إلا ازداد عتوا"[1]. ولئن كانت الهيبة تلغي كل القنوات التي يمكن أن ترسى لإقامة التواصل مع الملك والحديث إليه عن أمور الملك، فإن امتلاك القدرة على مقاومتها ومواجهة الملك يعد أمرا مستحيلا، لأن ذلك سيؤدي حتما إلى الهلاك:

> "غير أننا نعلم أن السباحة في الماء مع التمساح تغرير ومن دخل على الأسد في غابته، لم يأمن من وثبته وهذا الملك لم تفزعه النوائب، ولم تؤدبه التجارب ولسنا نأمن عليك ولا على أنفسنا سطوته وإنا نخاف عليك من سورته ومبادرته بسوء إذا لقيته بغير ما يحب"[2].

إن الفيلسوف بيدبا بحكم امتلاكه للمعرفة ومن موقعه كمرسل/مقوم أدرك أن الرعية التي فوضت دبشليم لتسييرأمورها، لم ينفذ برنامجه طبقا للالتزامات المتضمنة في العقد الذي يربطه ضمنيا بالرعية التي تعتبر المرسل الحقيقي الذي أزاح الملك السابق وسلم مقاليد الحكم لدبشليم. ومن الواضح أنه من حق الرعية أن تنظر فيما إذا شرف الملك التزاماته أم أنه خرقها في أثناء تسييره للفعل السياسي.

إن هذه الفرضية لا تستقيم لأن الملك صنع نظاما يستحيل على الرعية تقويم البرامج التي تفرزها الممارسة السياسية. فهي بين أمرين: السكوت عما يجري أم التدخل في مسألة الملك والمخاطرة بالنفس. ومن ثم، فإن النزوع إلى الاختيار الثاني سيفضي إلى مواجهة سياسية بين قوتين غير متكافئتين: القوة الأولى مجسدة في دبشليم الذي يملك السلطة السياسية والسلطة العسكرية. أما القوة الثانية التي يقف

---

(1) ص. 11

(2) ص. 14

ويعد بيدبا نبيها تحتكم إلى العقل والأسلوب الحجاجي في حل المشاكل الكبرى. من هنا، فإن امتلاك بيدبا المعرفة يعد معطى ثابتا في النص: "رجل فيلسوف (...)، فاضل حكيم، يعرف بفضله ويرجع في الأمور إلى قوله"[1]. ولما كان يدرك أن "الوحيد في نفسه والمتفرد برأيه غير منتفع ولا منتصر له"[2]، جمع تلاميذه بهدف مشاورتهم وتحريكهم في فعل جماعي تكون الغاية منه حمل الملك على تغيير أسلوب الممارسة السياسية وإحداث وصلة حقيقية بالرعية. وتأتي فكرة التحالف التي اقترحها على تلاميذه من موقع الوشائج المتينة التي تربطه بهم:

"وقد جمعتكم لهذا الأمر: لأنكم أسرتي ومكان سري وموضع معرفتي، وبكم أعتضد، وعليكم أعتمد"[3]. فهو يحدد لهم من خلال صورة الأسرة انتماءه من ناحية وانصهار أناه من ناحية ثانية في مجموعة تحكمها قرابة علمية مبنية على عقد ثقة. على هذا الأساس، يثمن بيدبا الفعل العلمي الناشئ من فضاء تنتشر فيه القيم العلمية وتصنع فيه المعرفة. من هذا الموقع، يستمد القوة الكفيلة بقلب موازين القوى على مستوى هرم السلطة. إن بيدبا يسعى بخطابه إلى تعبئة تلاميذه بوصفهم النخبة المثقفة الفاعلة في المجتمع الهندي. وهي تعبئة قائمة، على المستوى المعارفي، على الإقناع بالحجة: "على أن العاقل قد يبلغ بحيلته ما لا يبلغ بالخيل والجنود"[4].

وكما **استطاعت** القبرة أن تلحق أضرارا جسيمة بالفيل المتسلط من خلال تحريكها للغربان (فقأ عيني الفيل) والضفادع (انتقالها إلى وهدة وإحداث النقيق لحمله على الشرب والسقوط) وكما **استطاعت** الأرانب بفضل ذكاء فيروز أن تدفع الفيل إلى التوبة من خلال تحريك صورة القمر، فإن بيدبا **يملك من القوة** (القدرة العقلية) التي تجعله يحول مجرى الفعل السياسي للملك لصالح الرعية. بهذا الخطاب الحجاجي يسعى بيدبا إلى إقناع تلاميذه رغبة منه في انخراطهم في برنامج يرتكز

---

(1) ص. 11

(2) ص. 13

(3) ص. 13

(4) ص. 13

أساسا على البعد المعارفي dimension cognitive في مواجهة الملك: "ولا يمكن مجاهدته بغير ألسنتنا"[1]. ولئن كانت مسألة التحالف مع الغير للقيام بهجوم عسكري على الملك غير واردة: "ولو ذهبنا إلى أن نستعين بغيرنا لم تتهيأ لنا معاندته"[2]، فإن فكرة الجلاء عن الوطن غير واردة أيضا: "وليس الرأي عندي الجلاء عن الوطن"[3].

إن قراءة بيدبا للبرنامج السياسي للملك جعله يقوم تقويما سلبيا ممارسته للسلطة التي تجسدت عبر أفعال تتصهر في برنامج أساسي موجه ضد وجود الرعية وحقها في الحياة ويبين الحدة التي بلغها الملك في تعامله مع الرعية. ويتجسد هذا البرنامج عبر مجموعة من الأفعال **طغى وبغى وتجبر وتكبر** (...)، عبث بالرعية، استصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم[4]، تعكس طبيعة تعامل الملك مع الرعية وعلاقته بها المتوترة والمبنية أساسا على التسلط والظلم والإسراف فيه وخرق الحقوق الطبيعية للرعية والسعي بالفساد خارجا عن القوانين المنظمة للممارسة السياسية.

وإذا انتقلنا إلى المستوى الخطابي، فإننا نلاحظ أن هذا البرنامج يلقى تجلياته في مسارين صوريين. يتضمن الأول مجموعة من الصور تحيل وحداتها المضمونية على حاكم لا يمتثل في سلوكه لمقتضيات النظام الخلاقي الذي يحتكم إليه كل فرد في المجتمع. ويتشكل هذا المسار من الصور الآتية: **رداءة السيرة، سوء السيرة، قبح الطريقة، المبادرة بالسوء.** أما المسار الثاني الذي يتشكل من صور السطوة والسورة، والظلم للرعية، والخروج عن العدل ولزوم الشر، فإنه يعمل على توصيف ممارسة دبشليم للسلطة. ولئن كان دبشليم مشيدا هذه الممارسة على القمع والبطش، فإنه استطاع وبشكل مؤقت أن يلقي الرعب في قلوب الرعية

---

(1) ص. 12

(2) ص. 12

(3) ص. 11

(4) ص. 11

العامة والخاصة: "فبإبته الرعية"[1] ويصرفها بشكل تدريجي عن الفعل عن كل محاولة تهدف إلى قلب نظامه، وسيكون لها أثر في إيقاف مفعول تحريك بيدبا للعامل الجماعي التلاميذ. من هذه المنطلقات سعى الفيلسوف إلى تحريك الخاصة من الرعية وإقناعها لا بمشروعية خلع الملك ولكن بضرورة تحمل المسؤولية للحديث إليه في أمور الملك. وقد بدأت تتضح معالم هذا البرنامج في شكله المضمر في اللحظة السردية التي مارس فيها بيدبا فعله التأويلي في القيم التي أفرزها البرنامج السياسي الذي نفذه الملك. وقد أفضى هذا التأويل إلى تقييم سلبي حركه للقيام ببرنامج مضاد يكون الهدف منه تحريك الملك للدخول في وصلة بقيم العدل التي يحتكم إليه تسييره للفعل السياسي.

على الصعيد السردي، يسعى بيدبا إلى تحريك الفاعل الجماعي التلاميذ لتأسيسه مرسلا محركا يمارس سلطته المعرفية على الملك لحمله على القيام ببرنامج سياسي ينهض أساسا على المشاورة والحوار والعدل والإنصاف في حل المشاكل التي يعرض لها المجتمع الهندي. وعلى الرغم من أن التلاميذ اقتنعوا بصدق خطابه الذي يلقى توافقا مع طموحاتهم ورغبتهم في التغيير، ونبل القيم التي يدافع عنها والرامية إلى إعادة الاستقرار، فإنهم رفضوا الانخراط في مشروعه تأمينا لحياتهم وخوفا من بطش الملك وسطوته عليهم وعليه. إن خوفهم من رد فعل الملك وتوقعهم للهزيمة والشعور بالقلق من خطر وشيك الوقوع يودي بحياتهم أبطل مفعول رغبتهم، وعطل قدرتهم، وقلل من أهمية مواجهته بالحيلة (المعرفة).

2. المواجهة/البنية الجدالية في النص

وإذا كان بيدبا قد فشل في تعبئة تلاميذه، فإنه قرر مقابلة الملك. ومن الواضح أن اتخاذ قرار المواجهة أو تنفيذ المهمة المؤهلة يرتهن في وجوده إلى مجموعة من الجهات التي تدخل في تشكيل كفاءة الفيلسوف الذي أسس نفسه فاعلا في برنامج التغيير في الوقت الذي أدرك الشرخ الموجود بين السلطة والرعية. في هذه اللحظة

(1) ص. 11

ملكته الرغبة في التغيير الذي أضحى المنفذ الوحيد الذي تتسرب عبره القيم الصائنة لكرامة الإنسان. يتمظهر وجوب القيام بالفعل والرغبة في التغيير عبر الملفوظات الآتية:

"إن الفيلسوف **لحقيق** أن تكون همته مصروفة إلى ما يحصن به نفسه من نوازل المكروه ولواحق المحذور"[1].

"فلما رأى الملك وما هو عليه من الظلم للرعية، **فكر في وجه الحيلة عما هو عليه ورده إلى العدل والإنصاف**"[2].

"ونحن ما نروض أنفسنا لمثل هذه الأمور إذا ظهرت من الملوك، **إلا لنردهم إلى فعل الخير ولزوم العدل.**

"ولا يسعنا في حكمتنا إبقاؤه على ما هو عليه"[3]

"غير أني قد **رأيت رأيا وعزمت عزما**"[4]

"وقد صحت عزيمتي على لقاء دبشليم"[5]

إن امتلاكه لهاتين الجهتين سيمكنه من الانتقال إلى تحيين مشروعه الذي سيثير بعض التساؤلات تخص، في المقام الأول، ميزان القوى على مستوى القدرة المادية وهو ميزان في غير صالحه لوجود قوتين غير متكافئتين، وتخص، في المقام الثاني، أهليته في توقع وبرمجة العمليات الضرورية لمواجهة الملك أولا وصرفه عما هو عليه بعد إقناعه ثانيا. يعتبر بيدبا مسألة الغطاء المادي للفعل محسومة سلفا ولا تشكل عائقا وذلك لإدراكه أن: "العاقل يبلغ بحيلته ما لم يبلغ

(1) ص. 12

(2) ص. 11.

(3) ص. 14

(4) ص. 14

(5) ص. 14

بالخيل والجنود"[1]. إن بيدبا يثمن، على المستوى المعارفي، القوة العقلية المجسدة في الحيلة والتي تفهم في هذا المساق على أنها الحذق وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف في الأمور. يتعامل بيدبا مع دبشليم بمنطق مبني على التمييز بين القدرة المادية التي يملكها الملك والمتمثلة في الخيل والجنود والقدرة العقلية التي تتماهى مع المعرفة والمهارة في التدبير.

إن المنطق الإقناعي الذي يتجسد في حكايات كليلة ودمنة وبشكل خاص في **القنبرة والفيل**، **الغراب والبوم** **الأرانب والفيلة** يطرح فيه الراوي القوة العقلية كبديل للقوة المادية. وسيلجأ إليها بيدبا لمواجهة الملك.

وتبدأ المواجهة بمجرد وصول بيدبا إلى فضاء القصر وممارسة الطقوس (وامتثاله بين يدي الملك مكفرا ساجدا له) المشيدة بالملك وعظمته. وتعكس هذه الطقوس في بداية الأمر علاقة حاكم بمحكوم يفضل من الناحية الاستراتيجية في بداية هذه المواجهة السكوت عن الكلام:

"استوى قائما وسكت"[2]

"وفكر دبشليم في سكوته"[3].

"وقال له: نظرت إليك يا بيدبا ساكتا لا تعرض حاجتك ولا تذكر بغيتك"[4].

في هذه اللحظة من السرد، نلاحظ أن بيدبا قلب العلاقة الأولى وأحدث شرخا في عملية التواصل أضحى الملك فيها تابعا له ينتظر موضوع النصيحة ويفكر في سكوته. من الواضح أن النص في بنينته يقترح، على المستوى التداولي، تأويلا للسكوت انطلاقا من الوضعية التلفظية التي يحتلها الملك. تأسيسا على هذا، فإن السكوت أحدث افتقارا لدى الملك وحركه للقيام بعملية التحري عن مضمون

---

(1) ص. 13

(2) ص. 15

(3) ص. 15

(4) ص. 16

النصيحة ومغزى الزيارة ومن ثم إعطاء معنى للسكوت. ولئن كان مضمون النصيحة قول فيه دعاء إلى صلاح ونهي عن فساد، فإن دبشليم أقصى هذا المنحى تماما من موضوع قول بيدبا لقناعته بالميثاق الذي فرضه على الرعية والذي لا يكفل حرية الرأي في أمر الملك:

"وإن يكن من أمر الملك، ومما لا ينبغي للملوك أن يبذلوه من أنفسهم ولا ينقادوا إليه نظرت في قدر عقوبته، على أن مثله لم يكن ليجترئ على إدخال نفسه في باب مسألة الملوك"[1]. وإذا كان الملك قد استبعد حديث بيدبا عن الملك من خطابه، فإنه احتفظ بهذه الإمكانية وتوقع أنه سينظر في قدر عقوبة بيدبا لو أدخل نفسه في هذه المسألة. بهذه القراءة يكون الملك مقتنعا بحقيقة موضوع رغبة بيدبا، ومن ثم، فإنه سيج إطار بغيته في أمرين:

-"إما لالتماس شيء منا يصلح به حاله
-و إما لأمر لحقه فلم تكن له به طاقة"[2].

إن هذا التأويل يضع بيدبا في وضعية فاعل لا يملك القدرة على تحقيق موضوعه. وبالتالي فإن قدومه يؤول في الحالتين على أنه طلب إعانة وتحر عن موضوع جهة (القدرة على الفعل). وسكوته عن طلب الإعانة هو من منظور الملك صادر عن كون العلم والحياء إلفان متآلفين. وبالتالي، فإن حياءه هو الذي أثناه عن طلب المساعدة. وإذا كان سكوت بيدبا حرك الملك للتفكير في أمر العلماء، فإن هذا يعني أن بيدبا افتك منه، بفضل سكوته، أولا: الاعتراف بفضل العلماء الذي يعد في حد ذاته تمجيدا لهم. **ثانيا**: استعداده للنظر في مساره السياسي وفي حقوق الحكماء ورفع الظلم عنهم. **ثالثا**: قابليته لنفي الجهل وتثبيت العلم كقيمة أساسية في المجتمع:

---

(1) ص. 16
(2) ص. 15

"ومن لم يستحي من الحكماء **ويكرمهم ويعرف فضلهم** على غيرهم، ويصنهم عن المواقف الواهنة، وينزههم عن المواطن الرذلة كان ممن حرم عقله، وخسر دنياه، وظلم الحكماء حقوقهم، وعد من الجهال"[1].

من هذه المنطلقات، يمكن أن يدرك القارئ بأن الامتناع عن الكلام في مقام يقتضي الكلام هو كلام في حد ذاته واستراتيجية (حيلة) سخرها بيدبا لجس نبض الملك أولا، وحمله، من دون أن يشعر، على قبول الحوار ثانيا؛ ومن ثم جره إلى تنازلات كان يستحيل أن يقوم بها قبل عزمه على الذهاب إليه ورفع التحدي بمواجهته.

"وأنا قد فسحت لك في الكلام"[2]

على الرغم من أن لهذا الملفوظ وقعا إيجابيا على نفس بيدبا إلا أن ذلك لم يكن كافيا لحمله على الحديث الصريح إلى الملك. ومع ذلك، فإنه استغل الفرصة، وبدأ يمهد للحصول على تنازلات أخرى من جهة ولتنفيذ خطته والإعراب عن بغيته من جهة ثانية. ومن الواضح أن بيدبا، في هذا التمهيد، أقصى من خطابه الحديث عن العلاقة المتوترة بينه وبين الرعية وأملها في رفع الغبن عنها، ليتوجه إلى الذات الإلهية بدعوتها لمؤازرته للحفاظ على ملك دبشليم. إن الإعلان عن هذه الرغبة محمل برسالة تبعث على انشراح الملك وتخرجه في الوقت نفسه من الانقباض ومن متاهات البحث عن جواب على هذه الزيارة المفاجئة لأن موضوع النصيحة لن يتضمن تبليغه رغبة الرعية في إحداث القطيعة مع الملك وإزاحته عن الملك. ونلاحظ أيضا أن بيدبا قدم في هذا المقام التلفظي فعلا تأويليا ينهض على تقويم إيجابي (كرم الملك، وإحسانه) للممارسة السياسية للملك في تعامله مع **فئة العلماء**. ويدخل هذا التقويم الإيجابي المسجل على مستوى الظاهر والمسخر لاستمالة الملك

---

(1) ص. 16

(2) ص. 16

في علاقة تضاد وتعارض مع التقويم السلبي الذي أفرزه تأويله لبرنامج الملك المسجل على مستوى الكينونة والمتميز بالظلم والاستبداد قبل لقاء بيدبا بدبشليم.

إن بيدبا يعرب في بداية الأمر عن رغبته في عقد تواصل حقيقي بالملك وحتى يتم له ذلك، فإنه لا يدخر جهدا لكسب ثقته. ويقوم على هذا الأساس بنفي كينونته ليقدم للملك ظاهرا عاكسا بذلك وضعية صادقة للملك وهي في الحقيقة كاذبة من وجهة نظر القارئ.

"قال الملك يا بيدبا تكلم كيف شئت: فإني مصغ إليك، وسامع منك، حتى أستفرغ ما عندك إلى آخره، وأجازيك على ذلك بما أنت أهله"[1].

إذا دققنا النظر في هذا الملفوظ، فإن الملك ارتقى بالتنازلات التي أشرنا إليها سلفا إلى إقامة عقد ائتماني مع بيدبا والترخيص له بالحديث وإسداء النصيحة بكل حرية ومكافأته. وسيكون لهذه الالتزامات التي قيد الملك نفسه بها تأثير كبير في المرحلة الحاسمة التي سيواجه فيها الملك بخصوص مسألة الملك. وقد أدت هذه الضمانات المتبادلة والمتسمة بالصدق إلى تلطيف أجواء الحوار ورفع القيود على بيدبا في مقام يتطلب الحذر والتحفظ الشديد. ويظهر ذلك واضحا في الملفوظ الآتي:

"فلما سمع بيدبا ذلك من الملك أفرخ روعه، وسري عنه ما كان وقع في نفسه من خوفه"[2].

وإذا كان بيدبا مضطربا بفعل الخوف الذي يشكل عائقا حقيقيا لتبليغ معرفته للملك، فإنه استطاع بمهارته وذكائه وحكمته أن يتجاوز هذه العقبة بتقديمه النصيحة على أنها امتياز خص به الملك. وبالتالي، فإنها هبة تشكل شكلا من أشكال التواصل الرامي إلى عقد رباط وصلي بالملك. في هذه اللحظة السردية، يشرع بيدبا في تنفيذ برنامجه في شكل اقتراحات على الملك. إن هذا البرنامج يختلف من حيث الطبيعة

---

(1) ص. 17

(2) ص. 16

عن البرامج التي ألفها القارئ في النصوص السردية حيث يسعى الفاعل المنفذ من خلال تحريه عن موضوع القيمة إلى الدخول في وصلة به. ولئن كان بيدبا يملك الموضوع (المعرفة) ويسعى من موقعه كمحرك، فإن النصيحة هي، من جهة، محصلة لقراءة سياسية في برنامج الملك الذي يعد هيئة متلقية ومؤولة، وهي، من جهة ثانية، اقتراح لبرنامج آخر يهدف إلى تحقيق بغيتين أساسيتين:

أ) **البغية الأولى:** يعبئ بيدبا كفاءتة التي يفترضها النص لحمل الملك على الابتعاد عن القيم السلبية التي تتسم بها ممارسته السلطة السياسية وإقناعه بالدخول في وصلة بمجموعة من القيم ستكون لها انعكاسات إيجابية في إعادة بناء علاقة جديدة بينه وبين الرعية. تأسيسا على هذا، فإن بيدبا، من خلال اقتراحه النصيحة، يرغب في تأسيس الملك فاعلا منفذا في برنامج سياسي جديد كفيل بنقل الملك من وضعية فصلة عن الرعية إلى وضعية وصلة بها ونقله من سوء التدبير إلى حسن التدبير. وإذا دققنا النظر في هذه المسألة، فإننا نلاحظ أن تحريك بيدبا سيشتغل على مستوى كفاءة الملك في اتجاهين:

– **أولا:** تبليغه المعرفة في ممارسة السلطة.
– **ثانيا:** ترغيبه في تطبيقها.

إن مسعى بيدبا يكمن أساسا في محاولة الحصول على التزام من الملك بتنفيذ البرنامج المقترح. ويبدو الدور العاملي لبيدبا واضحا في النص؛ فهو في جميع الحالات يضع الملك بين اختيارين: القبول أو الرفض. إن حدوث الحالة الثانية تفضي إلى نتيجتين:

– **النتيجة الأولى:** تسليط العقوبة على بيدبا لأنه من منظور الملك اخترق حدود العقد بحديثه عن أمور الملك.

– **النتيجة الثانية:** يرفض رفضا قاطعا التطبيق ويخرجه من القصر. في كلتي النتيجتين يكون قد خرج من لوم يلحقه. إن تبليغ المعرفة يرتهن في وجوده إلى جهة

أساسية في كفاءة بيدبا. إنها الوجوب (يجب علبه أن يبلغ الملك) الذي يشكل، فضلا عن كونه جهة، قيمة استخلصها من تأويله لخطابات العلماء الذين سبقوه:

"**الواجب** على الملوك أن يتعظوا بمواعظ العلماء. والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها، وتأديبها بحكمتها، وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم، ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج والخروج عن العدل. فوجدت ما قالت العلماء فرضا واجبا على الحكماء لملوكهم ليوقدوهم من رقدتهم"[1].

يمكن أن ننظر في هذه الملفوظات على أنها متضمنة، على الصعيد المعارفي، برنامجين أساسيين: يتصدر البرنامج الأول عامل جماعي يتحدد دوره بوجوب الاتعاظ. فهو من هذه الناحية خاضع للعامل الجماعي العلماء الذي يضطلع في البرنامج الثاني بمهمة تبليغ المعرفة المبنية على الحجة والصادرة عن تأويلهم للمارسة السياسية للملوك. إن مسألة تلقي المعرفة تتسم بالطابع الإلزامي. يعني أنه ليس للملك الحق في رفض النصيحة. فهو ملزم بالإصغاء والتنفيذ. ومن ثم، فهو مقيد بعقد إلزامي[2] تكون فيه الرغبة في التنفيذ تابعة وتحصيل حاصل:

العقد الإلزامي=/ وجوب الفعل / ⇦ /الرغبة في الفعل/.

من هذه الزاوية، فإن العلماء يملكون السلطة في اتخاذ قرار التوجيه السياسي كلما حدث خلل (حدوث الاعوجاج والخروج عن العدل) في تسيير شؤون الرعية. أما الملوك، فإنهم يشكلون الهيئة التنفيذية التي تطبق ما تقرر.

"فإن فسح في كلامي ووعاه عني، فهو حقيق بذلك وما يراه، وإن هو ألقاه، فقد بلغت ما يلزمني وخرجت من لوم يلحقني"[3].

---

(1) ص. 23

(2) A. J. Greimas ,J. Courtés ,Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, HU, Paris, 1979, 189 .

(3) ص. 16

"فرأيت أن أجود بحياتي، فأكون قد أتيت فيما بيني وبين الحكماء بعدي عذرا. فحملتها على التغرير أو الظفر بما **أريده**"[1].

يقدم بيدبا في هذين الملفوظين الحالات الجديدة التي يتوقع أن يفرزها البرنامج الأساسي الخاص بمواجهته للملك. الحالة الأولى تنتج عن الفعل التحويلي الذي يمارسه بيدبا على الملك فيخرجه من وضع يكون فيه في فصلة عن المعرفة إلى وضع يكون فيه في وصلة بها. وإذا فشل في تحويل الملك الذي انتصب معارضا لأية رغبة في إسداء النصيحة، فإن هذا الفشل يولد حالة جديدة يكون فيها بيدبا قد شرف التزامه المتضمن في العقد الذي يربطه بفئة العلماء:

"**والواجب** على العلماء **تقويم الملوك** بألسنتها، وتأديبها بحكمتها، وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم، ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج والخروج عن العدل"[2]

وبالتالي فإنه يكون متحررا من عبء مسؤولية تبليغ الملوك:

"خرجت من لوم يلحقني[3]".

ينظم بيدبا، في بداية المواجهة الكلامية، خطابه بضمير المتكلم ويتوجه به إلى الملك مباشرة:

"أيها الملك إنك في منازل آبائك وأجدادك من الجبابرة الذين أسسوا الملك قبلك"[4].

حتى نفهم الآلية التي يشتغل بها الملفوظ، نقدم الخطاطة الآتية:

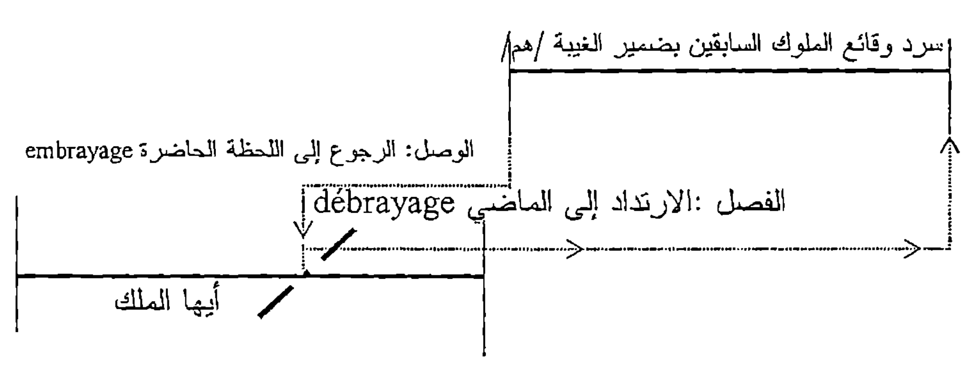
---

(1) ص. 24

(2) ص. 23

(3) ص. 17

(4) ص. 19



يحدث اللافظ، في هذه الخطاطة، خرقا زمنيا في اللحظة الحاضرة، يعلق الخطاب ليروي وقائع آباء وأجداد دبشليم. من خلال هذه الإضاءات، تتحدد أدوارهم العاملية في تشييد الملك وبناء القلاع والحصون وقيادة الجيوش. ويستند تحقيق هذه الأداءات إلى كفاءة سردية مفترضة. لم يقدم الراوي التفاصيل بخصوص الكيفية التي تم بها تحقيق هذه الأداءات المتنوعة. إن الحديث الموجز عنها هو بمثابة رسائل مشفرة يفترض فكها معرفة التفاصيل الدقيقة حول هذه الوقائع التاريخية. وبالتالي فإن الراوي مقتنع بأن الملك يملك الكفاءة لفك الشفرات. إنه من خلال هذا السرد الموجز يقدم للملك النقاط المعلمية الكبرى الخاصة بالممارسات السياسية للملوك السابقين. إن الراوي لم يسم هؤلاء الملوك ملكا ملكا. يقودنا بناء العامل الجماعي بهذا الشكل إلى فهم طبيعة ممارسته السياسية المتسمة بالتسيير الحسن لشؤون الرعية. تمثل هذه الممارسة على الصعيد الخطابي تشكلا يضم مجموعة من المسارات الصورية يمكن أن نقدمها على النحو الآتي:

الممارسة السياسية للملوك السابقين

↓

التسيير الحسن لشؤون الرعية

↙ ↓ ↘

الاستعمال الحسن إلى من خولوه الإرفاق بمن ولوه حسن السيرة فيما تقلدوه[1]

---

(1) ص. 19

إن هذه المسارات التي تحيل وحدات صورها المضمونية على التدبير الحسن والمرونة في تقليد المهام وتكليفها بمن حسنت سيرتهم، تعمل على تحديد الشخصيات التي اضطلعت في برنامجها بمهمة إرساء قنوات الاتصال بالرعية وتشييد عالم يبعث على الانشراح: "وعاشوا الدهور في الغبطة والسرور"[1].

وقد عرض بيدبا بعض معالم هذا العالم المحقق في الماضي والمتسم بالحياة، على الملك ليرسم له بذلك نقطة ارتكاز دالة ومحملة برسائل تستهدف في المقام الأول عالما آخر أقامه دبشليم على أنقاض عالم جميل سابق. إن عالم دبشليم على النحو الذي يعرضه بيدبا عالم مضطرب ومنهار بفعل تمزق الوشائج التي تحكم الراعي بالرعية. وبالتالي فإن هذه الرسائل مسخرة لخلق **التناقض** بين عالمين: عالم يبعث على الحياة والانشراح وعالم يبعث على الموت والانقباض.

إن التشكل الذي يعمل على تجلية المستوى السردي تقدم مساراته صورا ليست منغلقة على نفسها بل إنها تتوسع لتحدث وحداتها تجانسا دلاليا يعمل على توصيف الطابع الوحشي للممارسة السياسية:

الممارسة السياسية للملك دبشليم

↓

سوء التدبير في شؤون الرعية

↙ ↓ ↘

طغا،بغا،عتا وعلا على الرعية **أساء السيرة** **عظمت منه البلية**

ويمكن أن نفهم هذه الصور في علاقتها بالصور السابقة المؤطرة للملوك السابقين بالنظر إلى العلاقة التي تربط الصعيد السردي بالصعيد الخطابي. إن عملية الربط هذه متصلة أشد الاتصال بالمسارات الصورية التي تحيل على وضعيتين سرديتين متمايزتين ومتلاحمتين في الوقت نفسه.

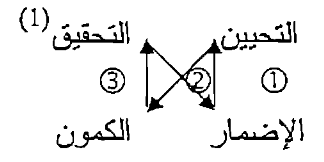
---

(1) ص. 19

❶ تحدد الوضعية السردية الأولى بعامل جماعي، الملوك، الذي تعددت برامجه وتنوعت بتنوع معارفه في التسيير. وقد جاءت هذه المعارف نتيجة لاحتكاك الملوك السابقين بالعلماء الذين يحتلون في هذه البرامج موقع المرسل المحرك الذي يخطط ويقرر كلما لاحظ اعوجاجا أو خروجا عن العدل. وإذا دققنا النظر في هذه المسألة، فإننا نلاحظ أن هذا العامل يتحدد عبر دورين أساسيين: يتمثل الدور الأول في تحريك وتفعيل كفاءة الملوك. إنه بحكم هامش المناورة الذي يتمتع به يفعلهم بتصييبهم فاعلا منفذا في البرنامج السياسي. ويسخر هذا الفاعل فيه كفاءته لتحقيق الأداء السياسي الذي يتمظهر على المستوى الخطابي من خلال:

① الاستعمال الحسن إلى من خولوه
② الإرفاق بمن ولوه
③ حسن السيرة فيما تقلدوه

ويقودنا ضبط هذه المسارات إلى افتراض أربع مراحل غطاها الفاعل (الملوك السابقون) في أثناء اضطلاعه بمهمة تنفيذه البرنامج السياسي. ويمكن أن تأخذ موقعها في المربع السيميائي على النحو الآتي:



يتحدد الإضمار على مستوى الكفاءة الجهاتية **بالرغبة** في تسيير شؤون الرعية **ووجوب** رعايتها بالتدبير الحسن. أما التحيين، فإنه يتمظهر من خلال الجهات المؤهلة (معرفة الفعل، القدرة على الفعل) للفاعل في ممارسة فعله السياسي.

ويجسد الكمون الحالة الشعورية للفاعل واستعداده النفسي الذي يمكنه من تحقيق القيم وإرساء قنوات التواصل بالرعية. ولئن كانت هذه المراحل الأساسية

---

(1) J.Courtés, **L'énonciation comme acte sémiotique**, Nouveaux actes sémiotiques, Pulim, Université de Limoges, n°58-59,1998,p.24.

الضامنة صيغ وجود الفاعل السيميائي، متخفية في النص ولا تأبى أن تظهر بشكل صريح على المستوى السردي، فإن القارئ من خلال بعض المعطيات النصية المقيدة سلفا يستطيع أن يسلم بوجودها. وتتأكد هذه الفرضية بفعل الإنجازات التي حققها الملوك السابقون على الملك دبشليم. وما كان لهذه الأداءات أن تتحقق في غياب كفاءة مفترضة.

❷ أما الوضعية السردية الثانية والتي تختم الرسم السردي، فإنها تأتي في الامتداد الطبيعي لأداء الملوك، وتتنصب في النص بالفعل التقويمي للبرنامج السياسي. ويمكن أن نلمس ذلك من خلال ثلاثة مستويات:

أ/ في المستوى التيمي يعبر الملوك عن رضاهم وانشراحهم بإنجازاتهم السياسية: "وعاشوا الدهور في الغبطة والسرور"[1].

ب/ المستوى الثاني، تضطلع الرعية بدورين عامليين. يتحدد الدور الأول من موقعها كمرسل إليه/ مستفيد من الإنجازات السياسية المحققة. ويتحدد دورها الثاني بالفعل التقويمي الذي تقوم به الرعية من موقع المرسل/المقوم لإنجازات الملوك: "فلم يمنعهم ذلك من اكتساب **جميل الذكر**، ولا قطعهم عن **اغتنام الشكر**"[2].

ج/ يعد المستوى الثالث محصلة للمستويين السابقين. إن التقويم الإيجابي المحدد للمسار السياسي للملوك [سواء كان هذا التقويم **انعكاسيا** أو **متعديا**] هو بمثابة الحجة القاطعة التي يقدمها بيدبا لدبشليم لحمله على رأب الصدع الذي أفضى إلى إحداث شرخ في المتصل السياسي الضامن لعملية التواصل بين الحاكم والمحكوم.

من هذه المنطلقات، نزع بيدبا في خطابه الحجاجي إلى مواجهة الملك بالارتكاز على وضعيتين متمايزتين. يمتد الزمن، في الوضعية الأولى، على مدى دهور بأكملها تعاقب عليها ملوك استطاعوا أن يشيدوا عالما متوازنا ومتوافقا مع

---

(1) ص. 19

(2) ص. 19

طموحات الرعية. أما الوضع الثاني الذي تتضاءل مدته الزمنية لتغطي برهة من الدهر متسمة بالاضطراب وتمزق القيم، فإنه ينتصب ليحدث التناقض بين مرحلتين منفصمتين. في هذه اللحظة من السرد، يحدث بيدبا خرقا زمنيا في المتصل السردي لينقل دبشليم من عهد مضى بكل إيجابياته وهو عهد الملوك السابقين، وينبري ليوجه خطابه في اللحظة الحاضرة (الآن، الهنا) وفي صيغة ضمير المتكلم إلى الأنت. إنها معارضة سياسية متضمنة إدانة مباشرة للملك:

ب "إنك أيها الملك (...) قد ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم ومنازلهم التي كانت عدتهم، فأقمت فيما خولت من الملك وورثت من الأموال والجنود فلم تقم في ذلك بحق ما يجب عليك، بل طغيت وبغيت وعتوت وعلوت على الرعية، وأسأت السيرة وعظمت منك البلية"[1].

يقوم بيدبا في هذا الملفوظ البرنامج السياسي للملك. وإذا كان هذا التقويم ينهض على القيم السلبية التي أفرزتها ممارسته السياسية، فإنه لا ينفصل على الإطلاق عن تقويمه الإيجابي للمسار السياسي للملوك السابقين. إن لخطاب بيدبا عينا على الماضي الحافل بالإنجازات وعينا على الحاضر أيضا ولكنه حاضر تتسرب عبره صور الطغيان والعتو والعلو والبلايا. ويقودنا هذا المسار الصوري الخاص بالملك إلى افتراض مجموعة من البرامج السردية حركها الملك في الاتجاه المضاد لرغبات الرعية وطموحاتها المشروعة. إن بيدبا في صناعة خطابه الحجاجي لم يعرض على الملك التفاصيل الدقيقة لممارسته السياسية ولم يعرض عليه أيضا وفي الوقت نفسه التفاصيل الدقيقة التي أدت إلى حدوث الأضرار التي لحقت بالرعية، ولكنه اكتفى فقط بذكر نتيجة الفعل السياسي الذي مارسه الملك على الرعية فخلق بذلك وضعا يتسم عبر المسار الصوري الذي يحيل عليه **بالاضطراب والموت**. وهو وضع يدخل في علاقة تضاد بالوضع الذي أفرزته ممارسة الملوك

(1) ص. 19

السابقين والمتسم بالاستقرار والحياة. تأسيسا على هذا، يتمفصل الخطاب السردي في نص النصيحة على ثنائية أساسية تخترق النص وتمنحه التجانس الدلالي:

حياة عكس موت

ومن الواضح أن بيدبا الذي تنقل إلى القصر بمحض إرادته للدفاع عن الرعية ورغبتها في الوجود والحياة، فإنه لم يفعل ذلك بناء على تكليف مباشر صادر منها، بل من موقع قناعته بضرورة التغيير الهادف إلى استرجاع الحقوق الجماعية للرعية. ولئن كان هذا العامل الجماعي يفتقد في النص، وتحديدا في المشروع المتضمن إسداء النصيحة للملك، إلى الدور الذي يمكن أن يضطلع به للدفاع عن حقوقه وتطلعاته المشروعة، فإنه في وضعية عاملية أخرى وفي عهد سابق، انبرى لخلع الملك الذي خلفه عليهم الإسكندر:

أ } "... ولا ترضى **الخاصة والعامة** أن يملكوا عليهم رجلا ليس هو منهم ولا من أهل بيوتهم. فإنه لا يزال يستذلهم ويستقلهم. واجتمعوا يملكون عليهم رجلا من أولاد ملوكهم، فملكوا عليهم ملكا يقال له دبشليم، وخلعوا الرجل الذي كان خلفه عليهم الاسكندر"[1].

في هذا الملفوظ، تنصهر الخاصة والعامة في فاعل جماعي واحد يتحدد دوره على مستوى الترسيمة السردية من خلال عملية التحري (تحقيق الأداء) التي يقوم بها ليرد الأمور إلى نصابها وبالتالي إعادة الاستقرار والكرامة للإنسان. إن رغبة الفاعل في خلع الملك تلقى مصدرها في عزمه على عزله. ويأتي هذا الفعل المحول، على الصعيد المعارفي، في الامتداد الطبيعي **للقرار السياسي الذي اتخذ جماعيا** (اجتمعوا). وعليه، فإن **تنفيذ هذا القرار** وتمليك دبشليم ومنحه الثقة جاء نتيجة لإجماع الخاصة والعامة (الفاعل المنفذ). يسكت النص في هذه الوضعية العاملية عن ذكر الإطار التنظيمي لهذا الاجتماع، ويسكت أيضا عن ذكر الأطراف الفاعلة في صناعة القرار. وإذا عقدنا مقارنة بين / أ / و/ ب/، فإننا نلاحظ أن

---

(1) ص. 11

القرار الذي اتخذه بيدبا في الوضعية العاملية /ب/ هو محصلة لعمل فردي اقتصر فيه على مشاورة **الفئة الخاصة** (تلامذته) وطلب معونتها لمواجهة الملك. إن اتصاله بالفئة الخاصة ومحاولة حملها على التنقل معه إلى القصر قد يكون صادرا عن دركه بأن الملك لا يرفض الاجتماع بها والإصغاء إليها وذلك لقناعته "بأنه يعرف فضلهم على غيرهم"[1]. ويمكن أن نؤول غياب الفئة العامة من هذا برنامج الذي قرر بيدبا تنفيذه على أنه يتوافق مع طبيعة المشروع الذي لا يحتاج إلى قدرة مادية في المواجهة. وبالتالي فإن كفاءة بيدبا تنهض في المقام الأول على المعرفة التي ينبغي أن تسخر لإقناع الملك بضرورة سلوك سبيل الأسلاف وتتبع آثار الملوك قبله بإحداث وصلة بالمتصل السياسي:

"وكان الأولى والأشبه بك أن تسلك سبيل أسلافك، وتتبع آثار الملوك قبلك، وتقفو محاسن ما أبقوه لك، وتقلع عما عاره لازم لك، وشينه واقع بك، تحسن النظر برعيتك، وتسن لهم سنن الخير الذي يبقى بعدك ذكره"[2].

ينزع بيدبا في هذا الملفوظ بخطابه لتوصيف وضع في زمن مضى تتسرب عبره مجموعة من القيم يتوافق فيها الحاكم والمحكوم، وهذه القيم التي تجسدها **المحاسن وآثار** الملوك السابقين حاضرة، إنها **إرث** وإذا كان الأمر كذلك، ينبغي أن يرثها الملك كما **ورث الأرض** و**الديار والأموال والمنازل** (انظر ب أعلاه). بهذا المنطق الحجاجي، يمارس بيدبا فعله الإقناعي وسلطته المعرفية على الملك لحمله على تغيير سياسته. وتتصدر هذا التحريك الجهة الوجوبية المتضمنة تبليغ أمر بالتنفيذ "وكان الأولى والأشبه بك أن تسلك سبيل أسلافك. . . ". غير أن هذا الأمر قد يقبله الملك أو يرفضه. إن المنطق الذي يشيد عليه بيدبا الخطاب الحجاجي يقودنا إلى اعتبار الرفض مسألة غير واردة لأن الملك يدرك أنه يستمد سلطته من الرعية التي أوصلته إلى الحكم (خولت من الملك) بهدف اقتفاء سياسة الملوك السابقين.

---

(1) ص. 16

(2) ص. 20

ويعني رفض نصيحة بيدبا الصادرة عن **إشفاقه عليه**، بكل بساطة، سحب الرعية الثقة منه لخرقه العقد، ويلقى، في هذه الحالة، نفس مصير الملك السابق.

"فلم أتكلم بهذا ابتغاء عرض تجازيني به، ولا التماس معروف تكافئني فيه،و لكني أتيت ناصحا مشفقا عليك"(1).

يحدد بيدبا، في هذا الملفوظ، بدقة موضوع القيم الذي يسعى إلى تحقيقه في عملية التحري التي تتموضع على نظير المعرفة. إن الفاعل المنفذ في هذا البرنامج لا يسخر خطابه الإصلاحي في سبيل تحقيق مجموعة من القيم المادية، وبالتالي فإن هذا البرنامج لا يمكن أن يشيد على بنية التبادل التي تقضي بتقديم بيدبا خدمة للملك للحصول على مكافأة. تحتكم هذه البنية إلى النظام الخلاقي الذي يقتضيه العقد المقترح على بيدبا في بداية اللقاء:

"قال الملك يا بيدبا تكلم كيف شئت: فإني مضغ إليك (...) وأجازيك على ذلك بما أنت أهل له"(2).

إن المكافأة هنا هي شكل من أشكال الإغراءات المادية التي لجأ إليها الملك لشل قدرته على القول في شؤون الملك.

ويعني رفض بيدبا هذا العرض خروجه من نظام والدخول في نظام خلاقي آخر يهدف، من جهة، إلى تقديم النصيحة للملك مقابل الحصول على تنازلات تكفل الحقوق الجماعية للرعية ويهدف من جهة ثانية، على مستوى البنية العميقة للنص، إلى نفي الجهل وتثبيت المعرفة التي تنهض عليها الممارسة السياسية ["فإن الجاهل المغتر من استعمل في أمور البطر والأمنية، والحازم اللبيب من ساس الملك بالمداراة والرفق"(3)].

---

(1) ص. 20

(2) ص. 17

(3) ص. 20

المعرفة الجهل

↑ ↘

اللاجهل

ويتعزز هذا التأويل، على الصعيد العميق، بتقويم الملك السلبي لنصيحة بيدبا، وبالتالي رفض المعرفة، بوصفها جهة يحتكم إليها **الفعل السياسي**، كبديل للجهل:

المعرفة الجهل

↙ ↑

اللامعرفة

ونلقى تجليات هذا المسار الدلالي في رد فعل الملك الحاد والمتوافق مع درجة التوتر العنيفة التي أحدثتها النصيحة:

"أوغر صدر الملك

↤ فأغلظ له في الجواب"(1)

↤ ❷**فأغرق الفكر فيه**

❸فسلك فيه إلى **استنباط شيء** عرض له من أمور الفلك،

↤ ❹ و**المسألة عنه**"(2)

ونزواتها المدمرة، والقمع والبطش والرعب. فقامت على أنقاضه قيم جديدة انتصبت لتحدث قطيعة جذرية مع ما مضى بنفي الجهل (❶) وتثبيت المعرفة (❷)

---

(1) ص. 20

(2) ص. 20

["وتفكر فيما كلمه به، فارعوى لذلك"[1]] على نحو ما يظهر ذلك واضحا في الترسيمة الآتية:

الجهل ❶ ↙ **المعرفة** ❷ ↑

اللاجهل (ارعوى)

من منطلقات هذه الوضعية النهائية التي آل إليها النص، يثمن دبشليم المشروع الإصلاحي لبيدبا بانخراطه في قيمه الأساسية التي تكفل الحقوق الجماعية، وإعادة تسيير الفعل السياسي في ضوئها بخلق انسجام بينه وبين الرعية. وتتلقى تجليات حسن نية الملك في تشييد عهد جديد في استوزاره بيدبا الذي جلس بمجلس العدل والإنصاف، يأخذ للدني من الشريف، ويساوي بين القوي والضعيف، ورد المظالم، ووضع سنن العدل"[2].

(1) ص. 20

(2) ص. 23

البيبليوغرافيا

-بيدبا، **كليلة ودمنة**، ترجمة عبد الله بن المقفع، الطبعة الرابعة، مؤسسة المعارف، بيروت، 1983

-محمد الناصر العجيمي، **في الخطاب السردي/نظرية قريماس (Greimas)**، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993.

-A. J. Greimas ,J. Courtés **,Dictionnaire raisonné de la théorie du langage,** HU,Paris,1979.

-J. Courtés , **L'énonciation comme acte sémiotique**, Nouveaux actes sémiotiques ,Pulim,Université de Limoges, n°58-59,1998.

- إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، **المعجم الوسيط**، دار الدعوة، استانبول، تركية، 1989.

دراسة تحليلية لرواية

نوار اللوز

للروائي الجزائري واسيني الأعرج.

0-1 فاتحة الرواية(•)

"قبل قراءة هذه الرواية التي قد تكون لغتها متعبة، تنازلوا قليلا واقرأوا تغريبة بني هلال. ستجدون حتما تفسيرا واضحا لجوعكم وبؤسكم. ما يزال بيننا، وحتى وقتنا هذا: الأمير حسن بن سرحان ودياب الزغبي وأبو زيد الهلالي والجازية (...)، فمنذ أن وجدنا على هذه الأرض وإلى يومنا هذا والسيف لغتنا الوحيدة لحل مشاكلنا المعقدة (...).

وحتى لا أثقل عليكم وأبدو أتعس من أبي زيد الهلالي، أو الأمير حسن بن سرحان (من التغريبة) أقول أن أحداث هذه الرواية من نسيج الخيال بشكل من الأشكال، وإذا ورد أي تشابه أو تطابق بينهما وبين حياة أي شخص أو أية عشيرة أو أية قبيلة أو أية دولة على وجه هذه الكرة الأرضية، فليس ذلك من قبيل المصادفة أبدا".

(واسيني الأعرج)

(•) "نوار اللوز،تغريبة صالح بن عامر الزوفري"، دار الحداثة، بيروت، 1983. رواية للكاتب الجزائري واسيني الأعرج. ولد يوم 8 أوت 1954 بقرية سيدي بوجنان الواقعة على الحدود الجزائرية المغربية. نشأ في بيئة عائلية فقيرة. التحق بمدرسة القرية حيث تلقى تعليمه الابتدائي، ومنها انتقل إلى مدينة تلمسان لمزاولة التعليم الثانوي، ثم تحول سنة 1973 إلى جامعة وهران لتحضير شهادة الليسانس في الأدب العربي. وبعد تخرجه في سنة 1977، سافر إلى دمشق لمواصلة دراسته العليا، فتحصل على شهادة الماجستير برسالة موسومة": اتجاهات الرواية العربية في الجزائر" ثم على دكتوراه الدولة بأطروحة عنوانها: "تطور مفهوم البطولة في الرواية الجزائرية". ثم عاد إلى الجزائر ليلتحق بسلك التعليم الجامعي حيث يشغل حاليا أستاذا في الأدب الحديث بجامعة الجزائر.

من تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته، وعرفه من أوله إلى غايته، علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العبـــاد (...).

المقريزي : إغاثة الأمة في كشف الغمة

1. النظام السيميائي لفاتحة الرواية/البحث في مستويات النص وأشكال بنينته

تتصدر الفاتحة الرواية وتتدرج ضمن ما يسمى عموما بخارجيـــات الـــنص. يتأكد هذا الطابع الخصوصي بإمضاءين (الأول للروائي واسيني الأعرج والثـــاني للمؤرخ المقريزي) هما بمثابة الحدود الفاصلة بين مقطعين نفترض أنهما يلتقيـــان دلاليا لتجسيد العلاقة بين السلطة والرعية.

ولئن كانت الفاتحة مستقلة عن النص الروائي وأحداثه وشخوصه، فإنها ملحقة به زمنيا ومرتبطة به دلاليا.

نلاحظ، من خلال قراءتنا لفاتحة الرواية، أن نظامها يختلف اختلافا جذريا عن نظام النص الروائي، فهي كلام على كلام وممارسة فكرية على خطاب منتج يسمي فيها الكاتب الأشياء بأسمائها بغرض إقامة تواصل مباشر وشفاف مع القارئ، وبهدف تحريكه نحو القنوات التي سيمر بها حتما نصه الروائي. إن هذه المنزلة المتميزة والخاصة التي يحظى بها الكاتب تجعله يتبوأ من الفاتحة موقع المرسل/المحرك الذي يسعى إلى إرساء قواعد الاتصال بالقارئ والتواصل معه في سبيل إقناعه بأمر يراه حقيقة تجسدها وقائع الرواية. من هذا المنطلق الأساسي تنزع الفاتحة نزوعا برهانيا.

نفترض أن الفاتحة تقدم لنا تأويل الكاتب لخطابـــه وعـــالم روايتـــه الـــدلالي والحوافز الحقيقية التي تختفي وراء تحركات شخوصه ورغباتها.

انطلاقا من المعطيات النصية، تحتوي الفاتحة على كل سمات الخطاب المعتبر كملفوظ: "يتوجه به شخص إلى شخص آخر وينظم ما يقوله في مقولة المتكلم"[1].

ونلمس هذا التوجه الصريح في النص في نزوع الأنا الكاتب (المتكلم) بخطابه إلى الأنتم [القراء]:

أ " قبل قراءة هذه الرواية التي قد تكون لغتها متعبة، تنازلوا قليلا واقـــرءوا تغريبة بني هلال[2].

يحمل الفعل "تنازلوا"، في هذا الملفوظ، شحنة دلالية خاصة. نقول لإنسان "تنازل" عندما نجبره على فعل شيء هو غير مقتنع به. والاقتناع هنا مقرون بقيمة النصوص الشعبية التي أضحت ثانوية بينما هي في الحقيقة تحتوي على العمق الذي لا يظهر لحقيقة ما يريد النظام تفاديه وعدم إظهاره لأن دلالته خطيرة. تبدو الرسالة Message الموجهة إلى القارئ واضحة المعالم. إن الكاتب، من موقع المرسل/المحرك destinateur / manipulateur، وباستعماله صيغة الأمر في "تنازلوا" و"اقرءوا"، يقدم، من ناحية، التغريبة على أنها مرور اضطراري لفهم النص الروائي، ويؤسس، من ناحية ثانية، القارئ فاعلا منفذا في برنامج ملحق programme d 'usage ذي طابع معارفي cognitif تكون الغاية منه إحداث وصلة بينه وبين تغريبة تشكل مرجعية نصية للرواية.

ولئن كانت القراءة هذا الفعل المعارفي الممارس على النص، فإن لغته المتعبة تعد محصلة طبيعية لفـــصلة disjonction القـــارئ عـــن التغريبـــة المنتجـــة لـــ اللامعرفة.

---

(1) E. Benveniste, Problèmes de linguistique générale ,Gallimard ,Paris,1974,T. 2,p. 79.

(2) واسيني الأعرج، نوار اللوز، تغريبة صالح بن عامر الزوفري"، دار الحداثة، بيروت، 1983،، ص. 5

حتى يتحقق التواصل بين القارئ والنص وتزول الحواجز، وتصير اللغة مرنة، مريحة، ينبغي أن يحدث تحول في كفاءة compétence القارئ يؤهله للانتقال من وضعية اللامعرفة إلى المعرفة.

ويعتبر هذا التحول الذي يدخل ضمن الإجراءات التشكيلية للكفاءة شرطا أساسيا تتوقف عليه الأبعاد الدلالية التي يمكن أن يستنبطها القارئ من النص السردي.

ب "ستجدون حتما تفسيرا واضحا لجوعكم وبؤسكم. ما يزال بيننا، وحتى وقتنا هذا: الأمير حسن بن سرحان ودياب الزغبي وأبو زيد الهلالي والجازية (...)، فمنذ أن وجدنا على هذه الأرض وإلى يومنا هذا والسيف لغتنا الوحيدة لحل مشاكلنا المعقدة (...)"[1].

دل ذلك على أحداث الرواية:

ج "وحتى لا أثقل عليكم وأبدو أتعس من أبي زيد الهلالي، أو الأمير حسن بن سرحان (من التغريبة) أقول أن أحداث هذه الرواية من نسيج الخيال بشكل من الأشكال، وإذا ورد أي تشابه أو تطابق بينهما وبين حياة أي شخص أو أية عشيرة أو أية قبيلة أو أية دولة على وجه هذه الكرة الأرضية، فليس ذلك من قبيل المصادفة أبدا"[2].

وردت الكلمات المركزية في الملفوظ [ج]، وعلى المستوى الشكلي، بخط بارز وأكثر اسودادا:

/تشابه/،/تطابق/،/فليس ذلك من قبيل المصادفة أبدا/ لتؤكد القصدية (بوصفها نفيا للمصادفة) من خلال عمليتي /التشابه/،/التطابق/، ولتشعر القارئ بحدود رسالة الرواية التي تحيل على واقع يمثل مرجعها. ولئن كان الكاتب يقيم علاقة صدق

---

(1) الرواية، ص. 5

(2) الرواية ص. 5

بينهما ويخول لنفسه إخضاع النص إلى امتحان الحقيقة، فإنه ينتهي في الأخير إلى أن تطابق النص مع الواقع عملية مقصودة. ولا يعني التطابق هنا "إلا عمق الصلة الرابطة بين التاريخ والواقع، ومن خلال ذلك يتحقق الامتداد، فالتاريخ كواقع مضى يجد امتداده في واقع ما يزال حيا ومعيشا[1].

من هذه المنطلقات، وبناء على ما سبق، نلاحظ أن الخطاب البرهاني للمرسل/المحرك يشتغل على نحو يكون فيه فهم الوضع الراهن مربوطا بقراءة الماضي. بعبارة أخرى، إن المرسل/المحرك يرغب في نقل القارئ من نص فاتحة الرواية إلى نص تغريبة بني هلال. وتشكل هذه النقلة برنامجا ملحقا يرتكز القارئ على تجلياته الدلالية للدخول في وصلة بتأويل وضعه الاجتماعي الذي يقدمه المرسل على أنه يتسم بـ/الجوع/ و/البؤس/. يشكل التأويل هنا برنامجا أساسيا لا يتحقق إلا إذا امتلك القارئ الكفاءة المناسبة. وتعتبر المعرفة عنصرا من عناصرها الأساسية. إن المرسل يقدم القارئ على أنه يفتقر إلى المعرفة بوصفها موضوع جهة. وعليه، فإنه يضع القارئ أمام احتمال وارد عندما يقر بأن لغة الرواية قد تكون متعبة وأن دعوته للتنازل عن قراءتها ستدخله في وصلة بالراحة. غير أن الإشكال الذي يبقى قائما هو أن الدعوة للتنازل لا تستهدف تأويل لغة نص الرواية بل تأويل جوع القارئ وبؤسه. من هذه الزاوية، تعتبر قراءة الرواية برنامجا معلقا قد ينفذه القارئ وقد يعرض عنه مادام الهاجس الأساسي للمرسل المحرك هو تأويل وضع القارئ الاجتماعي. من هذه الزاوية أيضا، قد تنأى الفاتحة عن غايتها الأساسية المتمثلة في تقديم أجواء الرواية وتوجهاتها الدلالية المحورية. غير أن المرسل يستدرك في النهاية الموقف ويورد نصا ثانيا نعتبره امتدادا للأول، من حيث حمولته الدلالية، وإطارا له في الوقت نفسه من حيث الحدود السياسية التي تشكل مرتكزا أساسيا في تأويل وقراءة الظاهرة الاجتماعية:

---

(1) آفاق، مجلة اتحاد كتاب المغرب،مطبعة المعارف الجديدة،الرباط، 1990، العدد الأول، ص.116.

د { "من تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته، وعرفه من أوله إلى غايته، علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد (...)". }

من الواضح أن هذا الملفوظ مأخوذ من المقدمة التي وضعها تقي الدين أحمد بن علي المقريزي لكتابه إغاثة المة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات في مصر"[1] الذي يؤرخ للمجاعات بوصفها ظواهر مادية اجتماعية صرفة. ويرد وجودها إلى ضعف السلطة السياسية وتمزقها وانصراف الحكام عن الاهتمام بشؤون الشعب وانقطاع كل صلة بينهما. ضمن هذا الإطار الدلالي العام يشتغل الملفوظ [د] ويتماهى بشكل قصدي ومبرر مع المحاور الدلالية لنص فاتحة الرواية. ولفهم هذا الملفوظ، ينبغي أن نسلم بوجود منظورين. يخص المنظور الأول اللافظ المنتج لهذا الملفوظ. أما المنظور الثاني، فإننا ندركه من خلال زاوية النظر التي يقدم منها نص المقريزي ويضعه في السياق الدلالي لفاتحة الرواية.

1.1 المنظور الأول

نلمس حضوره في توقيع المقريزي بوصفه فاعلا في فضاء مرجعي [مصر] يلاحظ بعد عميق تأمل حادثا، ويصوغ أجوبة لفهمه في ملفوظ يقوم على ثلاث مرتكزات أساسية تبدو واضحة في التقطيع الآتي:

[من تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته]، و[عرفه من أوله إلى غايته]، [علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد].

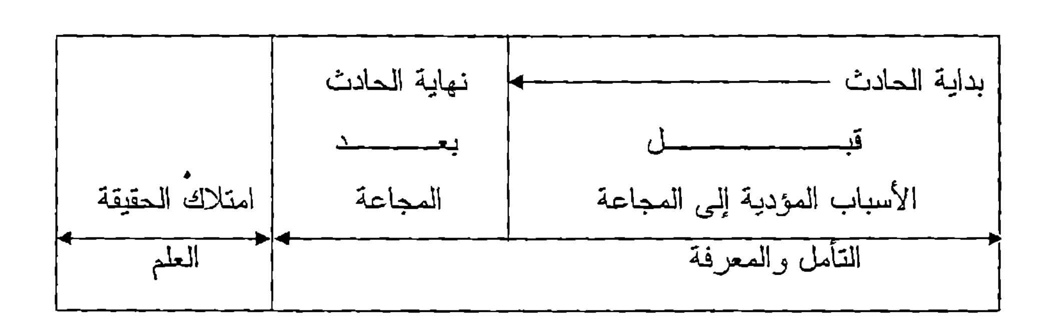
حتى نفهم التجليات الدلالية لهذا الملفوظ، سنرصد الوحدات المعنوية التي تدخل في تشكيل التأمل والمعرفة والعلم من منطلق تراثي:

---

(1) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، أو تاريخ المجاعات في مصر، دار ابن الوليد ودار الجماهير الشعبية، دمشق، 1956.

إذا استندنا إلى لسان العرب، نلاحظ أن التأمل يستعمل للدلالة على النظر في الأمر بتثبت وتأن من ناحية ، والمشاورة من ناحية ثانية[1]. أما المعرفة فإنها تقال لإدراك الجزئي أو البسيط[2]. ويأتي العلم كمحصلة للتأمل والمعرفة بما أنه يحيل على إدراك الشيء بحقيقته في بعديه الكلي والمركب[3].

ويطلق العلم على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة.من هنا نلاحظ أن الخطاب المعارفي يتضمن ثلاثة مستويات أساسية مسخرة لصياغة أجوبة على الإشكاليات التي تطرحها قراءة وفهم الحادث. ينبغي أن ننظر إلى الحادث، في هذا المقام، على أنه المصيبة التي نزلت بالناس؛ وتحديدا المجاعات التي نسفت المجتمع المصري. تأسيسا على هذا، يقوم هذا الملفوظ على ثلاثة برامج: /التأمل/ و /المعرفة/ و /العلم/؛ يشكل الأول والثاني في تعالقهما برنامجا ملحقا يسخر لإدراك الأسباب التي أدت إلى حدوث المجاعات [المعادل الموضوعي للحادث]. إن الحادث بوصفه موضوعا للتأويل لا يمكن أن تدرك تجلياته الدلالية إلا إذا وضعناه في صلب بنية زمنية يتحدد المابعد فيها الماقبل:



(1) ابن منظور،لسان العرب، المجلد الأول، دار الجيل ،دار لسان العرب، بيروت، 1988، مادة: أمل.

(2) إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد على النجار، المعجم الوسيط، إستانبول، تركية، 1989.

(3) نفسه.

يوضح التأمل والمعرفة الشروط الضرورية لامتلاك الموضوع الذي يتحدد عبر عملية التحري quête المتسمة بالطابع السياسي. يسعى المرسل المحرك إلى إقناع القارئ بأن المصيبة التي نزلت على الفاعل الجماعي [أهل مصر] محصلة لسوء تسيير الحكام. وبالتالي فإن فهم آليات تسيير السلطة مرهون سلفا بتأسيس فاعل ممتلك لكفاءة تنهض أساسا على التأمل والمعرفة. ويمكن أن نلاحظ في هذا المساق أن الخطاب ينزع منزعا علميا بما أنه يفضي إلى تحديد طبيعة العمليات التي ينتظم وفقها فهم الحادث بوصفه ظاهرة اجتماعية. يخضع هذا الخطاب لعمليات ثلاثة: أ) فهو يقدم الحادث كمشروع تفكير وكأي ممارسة علمية فإنها تحتكم إلى التأني والتثبت في الأمر والمشاورة. إن التأمل بوصفه ممارسة فكرية يشمل لحظتين أساسيتين: بداية الحادث ونهايته وتتسرب عبرهما الأسباب التي أفضت إلى حدوث الحادث في السياق التطوري وعلى امتداد زمني خاضع لمبدأ السببية. ومن الواضح أن الحادث محصلة للعملية التحويلية المنتجة للوضع الراهن والتي يتم من خلالها إعادة بناء، من خلال العناصر الملاحظة، الأفعال التي أسهمت بشكل أو بآخر في إفراز وضع خطير يؤدي في جميع الحالات إلى الموت. انطلاقا من المعطيات النصية، نلاحظ أن المعرفة هي في الواقع قراءة ثانية تتم عبرها عملية البناء. هذه القراءة خاضعة للمنطق المعكوس. فهي تبدأ من التأمل في نهاية الحادث، ثم تتوغل من منطلقات كشفية لتفضي إلى أولياته. إذا استندنا إلى لسان العرب، نلاحظ أن المعرفة لا تدرك من المنظور السيميائي في القدرة على برمجة العمليات الضرورية لتحقيق الأداء. ينبغي أن ننظر إلى المعرفة هنا استنادا إلى المرجعية التراثية التي تضبط حدودها الدلالية. وبالتالي فإنها إدراك جزئي يفضي بالضرورة إلى الإحاطة بالكليات إحاطة تمثل أرقى ما يصل إليه العلم. انطلاقا من هذا التحليل الأولي، يمكن أن نحدد خاصيتين لهذا الخطاب مناسبتين للحظتين من التنظيم السردي. تتمثل الخاصية الأولى في السياق الذي يتم فيه امتلاك الموضوع عن طريق التأمل أولا والمعرفة ثانيا [الكفاءة]. أما الخاصية الثانية، فإنها تتحدد عبر مسار يقود إلى الإدراك الكلي للحادث الذي تقف وراءه أسباب لا ينأى تأويلها عن الإطارين السياسي والاقتصادي. يمكن أن نحدد هذا التنظيم انطلاقا من

منظورين. يتقدم المنظور الأول بوصفه حدا لبرنامج امتلاك المعرفة السياسية. يهدف هذا البرنامج إلى التحري عن موضوع معارفي objet cognitif بوصفه موضوع جهة يؤهله امتلاكه للتأويل السياسي والاقتصادي للوضع الاجتماعي المضطرب. وبالتالي يسعى المرسل إلى نقل كفاءته إلى المرسل إليه: المتأمل. وحتى يحقق أداء التأويل فهو ملزم بقراءة الوضع في ضوء معطياته الاقتصادية والسياسية المنصهرة في الموضوع المعارفي. شراء المناصب والمراكز الحكومية بالمال بغض النظر عن الجدارة والأهلية. يقول المقريزي "السبب الأول وهو أصل الفساد. ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة، كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال، بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل. فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى ما لم يكن يأمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة، لتوصله بأحد حواشي السلطان، ووعده بمال للسلطان على ما يريده من الأعمال"[1]. وتتمثل الهبة المضادة في دفع ما عليهم من دين تجاه السلطان وسد حاجتهم. إن التغطية المالية للحاجات تؤدي إلى رفع الضرائب ومصادرة أموال أهل الريف الذين دفعهم هذا الوضع إلى الهجرة. فتتقلص المساحات المزروعة تقلصا يؤدي إلى قلة المنتجات الزراعية وارتفاع أسعار الموجود منها، وبالتالي تحدث الضائقات الاقتصادية التي قد تؤدي إلى المجاعات. إن السلطان من موقع قوته ورغبة منه في تنمية ثروته يعرض المناصب السياسية وفي دوائر خاصة للبيع وفي مقابل ذلك يتحول الزبون إلى فاعل سياسي متحرر من القيود القانونية ومفتقد إلى الجدارة التي تمكنه من تسيير أمور الدولة التي يفرضها المقام السياسي. يجسد مشروعه رغبته في استرجاع ما وهبه للسلطان من جهة وتنمية ثروته من جهة أخرى. في هذا المساق ندرك البعد التداولي للفعل السياسي. بهذه القراءة التي تنهض على التحليل الاقتصادي للوضع يحرك المقريزي القارئ في هذا الاتجاه ليدخله في وصلة بمعرفة جوهر الاستبداد والإشكال القائم بين السلطة والشعب.

---

(1) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، المصدر السابق، ص. 41.

1-2 المنظور الثاني

يخص المنظور الثاني إمكانات النظر إلى موضوع المعرفة السياسية على أنها تشكل رهان التواصل بالنسبة للكاتب والقارئ. يتبدى هذا الرهان إذا وضعنا نص المقريزي في صلب الاستراتيجية الخطابية للمرسل المحرك الأساسي واسيني الأعرج. ذلك أن إيراده للمقريزي ليس مجانا. فهو يشتغل كعنصر أساسي في القصة القصيرة التي يروي أحداثها للقارئ والتي تشكل إطارا عاما للقصة الكبيرة **نوار اللوز**. نعتبر فاتحة الرواية نصا سرديا لأنها تنطلق من وضع مضطرب يتجلى عبر الحادث ويسعى المرسل إلى تقديم المساعدة للقارئ الجماعي المحتمل بوصفه فاعلا متضررا من الوضع. غير أن المساعدة المتمثلة في تحريكه لمعرفة أسباب الحادث ومن ثم تمرده على السلطة السياسية يصطدم بالسيف بوصفه لغة السلطة المسخرة لحل المشاكل المعقدة.

هكذا فإن المرسل المحرك ينتقل في خطابه من الأنتم ("ستجدون حتما...") إلى ال/نحن/ ليطرح إشكالية التواصل بين السلطة والشعب من جهة والسلطة والمثقف من جهة أخرى وعلى اعتبار أن الكاتب يعد واحدا من رموزها. يضع القارئ والحكام وجها لوجه. وتحسم هذه المواجهة بالسيف.

2. سيميائية العنوان

إذا كانت الفاتحة تشكل ظاهرة تناصية تستمد دلالتها من تلاقي النصوص، فإن العنوان، على عكس ذلك، يثير تساؤلات لا نلقى لها إجابة إلا مع نهاية الرواية.

نسجل في بداية هذه الدراسة أنه من غير العادي أن نسخر اسم نبات لعنوان [نوار اللوز]، إذا لم نفكر مسبقا بأن هذا الاسم محملا برسالة إلى القارئ.ذلك أن اختيار اسم نبات كعنوان لرواية ليس مجانا.

من الواضح أن عنوان الرواية "نوار اللوز" يعد العنصر الأول الذي يظهر على واجهة الكتاب كإعلان إشهاري محفز للقراءة[1]. سنبدأ تحليلنا من هذه الوظيفة الإعلانية، واستنادا إلى التعالق المفترض بين العنوان والنص.

تعتبر العلاقة الأولى [عنوان/نص] المدركة عبر هذا التدرج الرسالة الأولى التي يسعى الكاتب إلى تبليغها للقارئ بهدف إثارة فضوله وتحريضه على قراءة النص. نلمس رغبة الكاتب في تحريك القارئ في الطريقة التي بنى بها العنوان. عنوان أساسي [نوار اللوز] يحيل على الأمل والحياة وعنوان فرعي [تغريبة صالح بن عامر الزوفري] يحيل على الغربة والموت. ويمكن أن نفترض منذ البداية أن الجمع بين الضدين مسخر لخلق إشكال لدى القارئ وتحفيزه، ومن ثم، تأسيسه فاعلا في برنامج يقوم فيه بعملية التحري عن حقيقة الإشكال في سبيل تعويض الافتقار.إن بنينة العنوان بهذا الشكل دالة، بمعنى أن التغريبة بتجليات قيمها الدلالية المحيلة على الموت تنضوي تحت النوار الذي يفضي إلى الحياة انضواء يحتوي فيه الأمل اليأس. انطلاقا من هذه المعطيات يمكن أن نفترض أن نهاية التغريبة تكون سعيدة.

أما العلاقة الثانية الممتدة من النص إلى العنوان فإنها تقودنا إلى النظر في النص على أنه آلة لقراءة العنوان[2] machine à lire le titre وبناء الدلالة: "...يدخل العنوان والرواية في علاقة تكاملية وترابطية: الأول يعلن،،والثاني يفسر، يفصل ملفوظا تفصيلا يعيد من خلاله أحيانا وفي خاتمة الرواية إعادة إنتاج العنوان في كلمة بوصفها مفتاحا للنص"[3].

من هذه المنطلقات النظرية، نلاحظ أن عنوان الرواية يتقدم في البداية بوصفه سنادا مستقلا لا يملك من مضمون دلالي سوى ما يحدده له القاموس. ويبقى، مع ذلك، خاضعا لاحتمالات دلالية مختلفة يصعب علينا إزاءها ترجيح هذا الاحتمال

---

(1) C.Duchet,"**La fille abandonnée"et "La bête humaine" éléments de titrologie romanesque**,Littérature n° 12,p.52.

(2) J.Ricardou,**Nouveaux problèmes du roman**,Seuil, Paris , 1978,p.148

(3) C.Duchet,**art.cit**,p.51.

الدلالي أو ذاك. ولتفادي هذه الصعوبة، نسلم في البداية بأن مضمون العنوان ليس ثابتا، ولا يمكن أن نضبط تجلياته الدلالية في استقلاليته. ومن هنا وجب علينا أن نرده إلى نظام النص الذي ينتمي إليه. وعلى هذا الأساس، يستمد العنوان قيمته الدلالية من العلاقة البنائية relation structurelle التي يقيمها مع عناصر هذا النظام. حتى ندرك حد هذه القيمة، سنلجأ إلى معاينة المقاطع السردية التي تتوافق وتتلاقى معها دلاليا.

نسجل في البداية أن أول وحدة معجمية [اللوز] من عنوان الرواية ظهرت مقترنة في الملفوظ الآتي بـ/انطفأت/ و/البراعم/:

"انطفأت براعم اللوز...) (غرقت القرية بكاملها في لحظة حزن طويلة"[1].

تترابط وحدة المضمون في صورة /انطفأت/ (براعم اللوز) وتتجانس مع لحظتي /الغرق/ و/الحزن/ لتتموضع على الصعيد التناظري isotopique plan للموت على نحو ما يجسد ذلك الحقل المعجمي الآتي الذي تحيل عناصره مباشرة على مأساة أهل القرية:

المجموعة γ:

أ 1	الرعود تقصف
أ 2	الغيوم تتصادم
أ 3	رأى (...) ليلا ينزل على القرية بظلام غائم
ب 1	الفقراء يبكون
أ 4	غابت ألوان الشجر الجميلة
أ 5	سقطت الأنجم الجميلة
ب 2	نامت القرية على القرحة باكرا[2].

(1) الرواية، ص.98

(2) نفسه، ص. 98

ويتمفصل هذا الحقل المعجمي دلاليا على النحو الآتي:

المجموعة γ'

أ'1	اضطراب + عنف
أ'2	كآبة + عنف
أ'3	كآبة
ب'1	فقر + حزن
أ'4	قبح
أ'5	عنف + قبح
ب'2	حزن

نلاحظ، من خلال قراءتنا لهذا الحقل، أن الوحدات المعنوية الصغرى المعبر عنها بالرموز { أ'1، أ'2، أ'3، أ'4، أ'5 } تجتمع لتفرز منظرا فيه اضطراب وعنف، وكآبة وقبح يعكس شعور أهل القرية الحزين { ب'1، ب'2 }، وكأن الطبيعة تعبر، من خلال هذه الوحدات، بطريقتها الخاصة عن آلام وأحزان أهل القرية على فقدانهم لابنهم العربي. وتقودنا هذه الملاحظة للقول بأن لحظة ولادة **نوار اللوز** (العنوان) توقفت بانطفاء براعمه لتعكس الجو الحزين الذي يهيمن على القرية، ولتفسر لماذا لم يشهد عنوان النص في هذه اللحظة بالذات (التي وصل إليها السرد) ولادته الحقيقية، ولتدل أيضا على تعطل البنية النصيةٌ على توليد وإنتاج العنوان.إن هذه الوضعية التي تتجسد بحضور الوحدات المعنوية الصغرى المقترنة ببعض عناصر العنوان في السياق النصي والمحيلة على عالم الموت ستشهد تحولا عميقا في نهاية الرواية يؤدي إلى ولادة النوار (عالم الطبيعة) بشكل متزامن مع ولادة العنوان (عالم النص)، ولادة الحملان (عالم الحيوان) ومع فكرة إنجاب قبيلة من الأطفال وقارة من البنات الطيبات على نحو ما يظهر ذلك جليا في الحقل المعجمي الآتي:

المجموعة β

أ

"في آخر العمر يا صالح تستعاد الأبوة المفقودة"[1].

"سنتزوج، وننجب قبيلة من الأطفال وقارة من البنات الطيبات (...) سنجد شغلاً ونبني من هذا الركام حياة رائعة"[2].

ب

"... ظهر على أغصان شجيرات اللوز نوار أبيض، صغير، كان يبشر بربيع جميل". "الحملان الجديدة التي ولدت في الزرائب ... تهتز (...) شجيرات اللوز العملاقة وتتمايل".

ج

الناس فرحون (...) أملهم الكبير كان في نوار اللوز"[3].

يمكن أن نصوغ هذا الحقل دلالياً على النحو الآتي:

المجموعة β '

أ' ← خصب + أمل + حياة

ب' ← خصب + براءة / أمل + جمال

ج' ← فرح + أمل

↓

عالم الحياة

---

(1) المرجع السابق، ص 209.

(2) نفسه، ص 210.

(3) نفسه، ص 210.

يقدم هذا الحقل جردا عاما للوحدات الدلالية المتماسكة في الخطاب والمعتبرة كمؤشرات على مجموعة السمات التي تظهر كآلة حقيقية لإنتاج عنوان الرواية [المجموعة β : أ، ب ← ج].

يمكن أن نستنتج أن هذه الوحدات تؤدي إلى إحداث مجموعة من المفعولات الدلالية effets sémantiques لتوليد عالم الحياة المدرك في تعارضه مع عالم الموت [المجموعة γ']:

عالم الحياة عكس عالم الموت[1]

نشير هنا إلى أن العلاقة بين العالمين المؤسسة على التقابل opposition عبارة عن رفض ونفي دائم لواحد من الحدين [عالم الموت] بهدف تأكيد الآخر [عالم الحياة]. إن العلاقة بين القطبين علاقة إقصاء[2].

استنادا إلى المجموعة γ'، نلاحظ أن العناصر الطبيعية التي اجتمعت لتحدث اضطرابا وعنفا وتوقفا في الحياة تعبيرا عن الجو المأسوي المهيمن على أهل القرية، تلتقي مرة ثانية لتحدث جوا مغايرا [المجموعة β']، فيه سعادة وأمل وخصب وحياة، تعبيرا عن الوصلة المحققة بين صالح ولونجة [المجموعة β، أ]. تأسيسا على هذا، يأتي العنصر الطبيعي الممثل في صورة النوار[المجموعة β، ب] ليولد وحدة مضمونية تغطي فكرة الأمل والخصب [المجموعة β، أ1] المتجانسة مع عودة الأبوة المفقودة [المجموعة β، أ]. وتتسع صورة الأبوة إيجابيا لتقترن بصورة الإنجاب [المجموعة β، أ("سننجب")] التي تتقدم كتوسع لقيمة الحياة المتعارضة مع قيمة الموت.

لا بد أن نشير في هذا المساق إلى أن الوضعية التي يجسدها العنوان [المجموعة β، ج]، وهي الوضعية التي يصل إليها النص في نهاية القصة متقدمة

---

(1) تدل عكس على العلاقة التقابلية والخلافية.

(2) آن إينو، مراهنات، دراسة الدلالات اللغوية، ترجمة أوديت بيتيت وخليل أحمد، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق، 1980، ص. 95.

جدا ومقلوبة. حتى يستعيد صالح أبوته المفقودة، ينبغي أن يحقق الوصلة بينه وبين لونجا.

إن **نوار اللوز** [المجموعة β، ج]، في مظهره السيميائي وما يحمله من قيم (السعادة والأمل)، جاء ليعكس أولا هذه الوصلة وليعبر عن الدورة الدلالية للنص وذلك في جانب من جوانبها.

تقودنا هذه الاستنتاجات للتسليم بأن ولادة العنوان وما تحمله من تحولات وتفرعات دلالية خضعت على نحو ما رأينا ذلك للنمو السردي والخطابي للقصة. ويدفعنا هذا التسليم للقول بأن نص رواية **نوار اللوز** المتماسك يعتبر آلة حقيقية لإنتاج العنوان.

أما العنوان الفرعي الثاني لهذه الرواية **تغريبة صالح بن عامر الزوفري**، فإننا نفترض توافق مضمونه مع العنوان الأساسي في أبعاده الدلالية المنضوية تحت الثنائية الضدية:

موت عكس حياة

حتى نتأكد من هذه الفرضية، نشير في البداية إلى أن **التغريبة** في الرواية تتفاعل نصيا مع السيرة الهلالية. فهي تدل على انتقال أبناء هلال بن عامر من نجد العدية إلى الغرب واستقرارهم النهائي فيه بدافع الحفاظ على كيانهم وصون بقائهم. إنها تغريبة إجبارية وليست اختيارية لأن البقاء في نجد يعني بكل بساطة الهلاك الجماعي نتيجة الجدب. وبالتالي، فإن الانتقال من الهنا (الفضاء العائلي) إلى الهناك (الفضاء الأجنبي) يعكس من ناحية افتقارهم إلى القدرة على البقاء ورغبتهم في البقاء ووجوب تنقلهم. إن اقتران **الوجوب** بالفعل **تنقل** يعكس الطابع الإلزامي في تنفيذ البرنامج الأساسي للتغرب. وإذا كان التحري عن الموضوع لا يعكس الرغبة في الحياة (الاستجابة للقدر الكبير من المطالب)، فإنه يعبر على الأقل عن الرغبة في البقاء والوجود. من هذه الزاوية، تلتقي السيرة الهلالية بالتغريبة في الرواية.

ولئن كانت الهجرة القسرية إلى الهناك جماعية في السيرة، فإنها فردية في الرواية؛ ونستشف ذلك من خلال العنوان الذي يتم فيه التأكيد على نسب صالح: **تغريبة صالح بن عامر**. يعمل العنوان على تأكيد قرابة صالح للأبناء الهلاليين وانتمائه إليهم. ومن هنا يأتي صالح في الامتداد الطبيعي لهؤلاء. إن الأحداث المتعاقبة عبر الحقبة الزمنية الطويلة الممتدة من عهد الهلاليين (السيرة) إلى زمن صالح (الرواية)، وإن كانت تبدو في الظاهر مختلفة فإنها في العمق تشكل حدثا واحدا يتماهى في الهجرة والتغريب الذي يعني "النفي عن البلد الذي وقعت فيه الخيانة"[(1)]. وعليه، فإن صالح لم يتغرب نتيجة للجفاف وانقطاع أسباب العيش، بل لأنه أحس في قرارة نفسه أنه حرم من حقه وطعن في أعز ما يملك وأن القيم التي دافع من أجلها وهو يجاهد ضد الاحتلال غيبتها سلالة بني هلال وصارت "تفرض على أبنائها التغرب لتستفيد فئة من السلالة ضد السواد الأعظم منها. وصالح بن عامر جزء من هذا السواد وصورة عن ممارسي التهريب العديدين"[(2)].

إن عنوان الرواية يتموضع في صلب هذه الدلالة المركزية وفي إطارها ستفرز دلالات أخر سنعاينها من خلال قراءتنا للنص.

3. البنية السردية وتجلياتها الدلالية في رواية نوار اللوز

3-1 مدخل نظري

نسلم في بداية هذا البحث بأن تنظيم الوحدات البنائية في النص السردي يخضع لواحد من المبدأين الأساسيين: فهو إما أن يكون تابعا لمبدأ السببية causalité المؤسس على التسلسل الزمني chronologie، وإما أن يكون قائما على مبدأ

(1) محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد الكريم العزباوي، مراجعة إبراهيم السامرائي وعبد الستار أحمد فراج، ج2،مادة غرب، مطبعة حكومة الكويت، 1967، ص. 476.

(2) سعيد يقطين، السيرة والرواية: نوار اللوز لواسيني الأعرج نموذجا في: آفاق، مجلة اتحاد المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1990، ع1، ص. 118.

التتابعsuccession[1]. استنادا إلى هذا المرتكز النظري، سندرس رواية **نوار اللوز** بوصفها متتالية من الأحداث événement المنظمة وفق مبدأ السببية مولين في ذلك أهمية قصوى لطبيعة المشروع الذي تبنى عليه هذه الأحداث وتنظم في "متتالية زمنية متماسكة"[2].

إن ضبط علاقة الأحداث بالمشروع، سيساعدنا على تحديد نظام القوى المتصارعة في القصة. وعليه، ينبغي أن نميز في صلب في هذا النظام من جهة، بين البطل وهو الشخصية التي تضفي على الحدث الطابع الاندفاعي باعتبارها قوة اندفاعية على حد تعبير سوريو[3]، ومن جهة أخرى، بين القوة المعارضة force opposante التي تعمل على إفشال مساعيها[4]. وتستمد القصة histoire ديناميتها من المواجهة التي تتم بين مختلف هذه القوى.

3-2 البناء الداخلي للنص

استنادا إلى مفهومي الحركة mouvement (المستعملة للدلالة على تغيير الوضعية الاستراتيجية) والقوة، يمكن أن نضبط المكون السردي composante narrative على النحو الآتي:

تبدأ رواية **نوار اللوز** في المقطوعة أ ب [رسم 1][5] بمتتالية من الملفوظات تعكس الوضعية المتردية لصالح وبطالته. ومع بداية هذه المقطوعة، تتحرك عملية تحري صالح في اتجاه البحث عن منصب شغل.

---

(1) Tomachevski. B. V"Thématique" in Théorie de la littérature,Textes des formalistes russes et traduits par T. Todorov, Seuil,Paris,1965,p. 267 .

(2) C. Bremond,La logique des possibles narratifs,in Communication 8.

(3) E. Souriau, Les deux cents mille situations dramatiques,Flammarion , Paris , 1950 .

(4) O. p ,p. 55

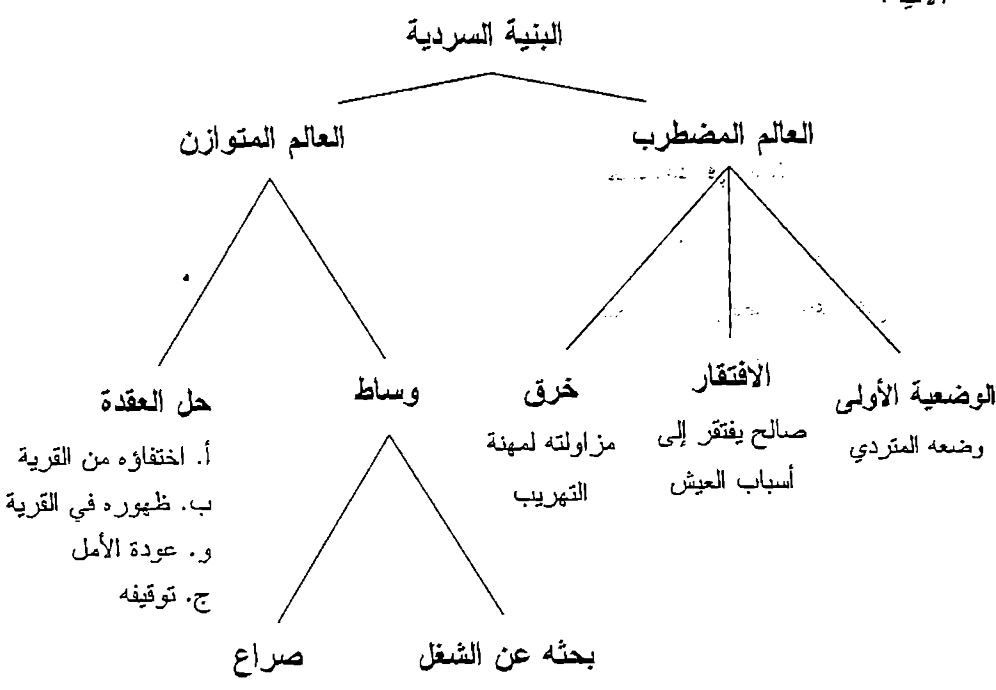
(5) أنظر الملحق 1.

وينتهي هذا الوضع المضطرب في المقطوعة ج ح [رسم 1] إلى حالة توازن جاءت نتيجة لظهور فكرة التهريب. ولكن سرعان ما تأتي قوى لتضرب هذا التوازن وتخلق توترا جديدا بتوقيف صالح وذلك في نهاية المقطوعة ج ح.

وتعود الرواية من جديد إلى نقطة التوازن مع إطلاق سراحه وتأكيد رغبته في تهريب البضائع وبيعها لتجدد الدورة ويبدأ التحري عن منصب شغل. تنتهي عملية البحث بالفشل، ثم اليأس وفقدان التوازن المعبر عنه بالاختفاء من القرية [رسم 1، هـ و].

ومع ظهور صالح في نهاية الرواية [رسم 1، وي]، تأخذ الأحداث مجراها في اتجاه خلق التوازن يبعث على الأمل والحياة [2. 2، المجموعة β'].

استنادا إلى النحو السردي(1)، يمكن أن نصوغ هذا المكون في الخطاطة الآتية:



(1) Thomas G. Pavel, La syntaxe narrative dans les tragédies de Corneille, Klincksieck, Paris, 1976 .

من خلال ضبطنا للمحاور العامة للرواية، يمكن أن نلاحظ أن البنية السردية، في بعض جوانبها الأساسية، تبرز منذ البداية مواجهة بين طرفين متضادين؛ الفاعل صالح الذي يقوم بدور المهرب والفاعل المضاد الذي يؤدي دور الجمركي.

تقودنا صياغة البنية بهذا الشكل إلى التساؤل عن طبيعة موضوع القيمة objet de valeur الذي تتصارع من أجله هذه القوى. بعبارة أخرى، ما هو الموضوع الذي يملكه الفاعل ويريد الفاعل المضاد anti-sujet تملكه.

تبدو الإجابة في الظاهر بسيطة غير أننا، في العمق، نلقاها في غاية التعقيد ولا نستطيع أن نفك الإشكال إلا باللجوء إلى المنظور الذي يتبناه كل طرف في الصراع.

أ-**المنظور الأول [الجمركي]:** إن المنظور الذي يتبناه الجمركي لا يظهر فاعلا مضادا. فهو يمارس مهنة شرعية تخول له مراقبة البضائع عبر النقاط الحدودية. إنه يملك الحق في حجز البضائع المهربة وإحالة صاحبها إلى العدالة طبقا للإجراءات القانونية المعمول بها. غير أن الراوي يخرج من هذا المنطق ويميل إلى التركيز على إمكانية سردية أخرى على نحو ما سنلحظ ذلك في المنظولار الثاني.

ب-**المنظور الثاني [صالح]:** يعتبر صالح سلوك الجمركي ممارسة موجهة ضد حقه في الوجود. يؤدي منعه من تهريب البضائع ورفض حقه في العمل [الشرعي] إلى خلق شروط تدميره. ذلك أن تجريده من البضاعة يعني بكل بساطة تجريده من الخبز:

-"والله يا حماده نريد الخبز فقط. حاجة خفيفة. شوية كتان، ..."[1].

يمكن أن نسلم بأن النص يذيب رهان الصراع في موضوع قيمي واحد هو الخبز. ويتحول الجوع في هذا السياق إلى مرسل حقيقي للصراعات المعلنة في الرواية:

---

(1) الرواية، ص. 19.

"لا شيء في هذا الحي غير البرد والجوع ..."[1].

إن الصراع بين الفاعل والفاعل المضاد يستدعي تبريرات مناسبة لوجوده تقتضي برنامجا سرديا يضيء الأسباب الحقيقية التي تقود صالح إلى النظر في سلوك الجمركي على أنه ممارسة تدميرية لشخصه.

حتى نوضح هذه المسألة، ونعرف رهان الصراع بينهما، سنلجأ إلى وضع جدول يتضمن العناصر المرتبة حسب ظهورها التسلسلي في النص، ونحاول بعد ذلك فحص العلاقات التي تربطها في سبيل الكشف عن التجليات الدلالية للمقاطع السردية.

(1) نفسه، ص. 35.

الجدول1

المسارات / الصفحة	المســـــــــار أ	المســـــــار ب
ص. 8 أ1	قادها الجوع إلى التهريب	
ص. 11 أ'1	...لكنني كبرت فقيرا...	
ص. 16 أ"1	...وحين يدخل الجــوع وبــرد المساء عيوننا...	
ص. 17 أ2	ذات صباح، نردم أحياء تحـت أنقاض هذه البراكة.	
ص. 17 أ'2	...الميزيريــــة الكحـــــلاء والتريباندو والموت.	وأولاد لاليجو ينتفخون ب1
ص. 18 أ3	نحن ندفع الثمن من لحمنا	هم يلعبون اللعبة القذرة حتى النهايــة ب2.
ص. 18 أ'3	نسقط دائما ضحاياها	وراء هذه العمليات الـضخمة رجـال قديرون ب'2...
ص. 18 أ"3	نحن نسقط	وهم آخر من يمكن أن تلصق به التهمة ب"2. أنا متأكد أنهم كبـار، وراءهـم مـن يحميهم، يجنون أرباحا مفزعة ب'"2.
ص. 19 أ4	لو وجدنا شغلا بسيطا (...) مـا أكلتنا مخاوف الحدود.	
ص. 19 أ5	لا شيء في هـذا الحـي غيـر الجوع والبرد	
ص. 24 أ'5	نأكل حرفة الجوع	كل يا السبايبي أرزاق الفقراء ب3
ص. 26 أ'"5	سنضطر تحت ضغط الجوع أن (...) نهاجر إلى الحدود البعيدة.	

الجدول 1 [تابع]

المسارات / الصفحة	المسار أ	المسار ب
ص. 27 أ6	الجميع يفتح عينيه على البؤس ويغمضها عليه.	
ص. 28 أ'6	مجبرون أن نسرق أو نموت جوعا.	
ص. 28 أ''6	إني لا أهرب إلا لأعيش.	
ص. 33 أ7	الميزيرية الكحلاء والتهريب	حول بيته إلى سوق حرة ب4.
ص. 40		يداه طويلتان، معارفه في العاصمة بعدد النجوم ب5
ص. 53 أ'7	يا ابن البلدة الفقر والقحط.	
ص. 76 أ''7	هكذا نأتي حفاة عراة جياعا.	
ص. 77 أ'''7	الطفولة أكلها الفقر،الفقر قتلنا.	
ص. 78 أ8	طفولتي الجائعة.	
ص. 94		أياديه طويلة حتى العاصمة ب6
ص. 98 أ'8	تضور الأطفال جوعا.	
ص. 99 أ''8	الأطفال الفقراء أكلهم الفقر.	
ص. 102 أ'''8	أنا فقير وجائع.	
ص. 142 أ9	أكلهم الجوع والفقر.	
ص. 145		له معارف كبيرة وكثيرة الفوق ب7.
ص. 152		يلعبون بدمنا ويوزعونه على أغنياء البلد أوراقا وكبرهات ومراقص. ب8

جدول2: المحاور الدلالية

الصفحة	المسارات	المسار أ	المسار ب
ص. 8	أ1	جوع، تهريب	
ص. 11	أ1'	فقر	
ص. 16	أ1''	جوع، برد	
ص. 17	أ2	موت	
ص. 17	أ2'	بؤس، تهريب، موت	خيانة، رفاهية
ص. 18	أ3	ظلم، خسارة	تهريب، نجاح
ص. 18	أ3'	فشل	قوة، غنى، نفوذ
ص. 18	أ3''	فشل	حصانة، نجاح، نفوذ، حصانة، غنى
ص. 19	أ4	بطالة، تهريب	
ص. 19	أ5	جوع، برد	
ص. 24	أ5'	تهريب، جوع	استغلال، غنى
ص. 26	أ5''	جوع، هجرة، تهريب	
ص. 27	أ6	بؤس	
ص. 28	أ6'	بطالة → سرقة بطالة → موت	

جدول2 [تابع]

الصفحة / المسارات		المسار أ	المسار ب
ص. 28	أ"6	تهريب ← حياة	
ص. 33	أ7	بؤس، تهريب	تهريب، غنى ب4
ص. 40			نفوذ ب5
ص. 53	أ'7	فقر	
ص. 76	أ"7	فقر، جوع	
ص. 77	أ"'7	فقر	
ص. 78	أ8	جوع	
ص. 94			نفوذ ب6
ص. 98	أ'8	جوع	
ص. 99	أ"8	فقر	
ص. 102	أ"'8	فقر، جوع	
ص. 142	أ9	جوع، فقر	
ص. 145			نفوذ ب7
ص. 152			استغلال ب8

يكتسي الجدول [2] أهمية خاصة. إنه يمكننا من ضبط الآلية التي ترسي بها الوحدات المعنوية شبكة دلالية في صلب النص.

يمكن أن نكشف عن علاقات التقابل الأساسية التي تحكم الوحدات المعجمية المثبتة في الجدول [1] من خلال تحديدنا لمفهوم السيم Sème. فهو:

"عنصر دلالي (...) لا يظهر على حقيقته إلا في علاقته بعنصر آخر مغاير؛ إن وظيفته خلافية ليس إلا، وعليه لا يمكن أن يدرك إلا في صلب مجموعة عضوية، في إطار البنية"(1).

استنادا إلى هذا التعريف، يستمد كل عنصر في الجدول [2] قيمته الدلالية من تعالقه بالعناصر الأخرى. وعليه، يستحيل أن ندرك معنى السيمات أ1،أ'1، أ"1، أ2، أ'2... أ/و[جدول2، مسارأ] بقطع النظر عن علاقته التقابلية بـ ب1، ب2، ب'2، ب"2... ب8 [جدول2، مسارب]. وتفسر لنا هذه العلاقات التقابلية والخلافية الثنائية الضدية بين المسار [أ] والمسار [ب].

يبدأ المسار أ [جدول2] بوضع سيمي /الجوع/ و/التهريب/. تتمثل وظيفة السيم الأول في إبراز التناقضات التي يعاني منها صالح؛ فهو يعاني من الفقر [أ'1] والظلم [أ'2] والبؤس [أ'2]. ويأتي التهريب كحل مؤقت لهذه التناقضات.

لا يمارس صالح مهنة التهريب رغبة منه في الربح والاغتناء على نحو ما يحقق ذلك الرجال القديرون [جدول1، ب2]. فهو لا يريد أن يملك سوى ما يقيم به الأود.

هكذا تتأرجح الوحدات المعنوية الصغرى في المسار [أ] [جدول2] بين الموت والرغبة في البقاء. لا تعني هذه الرغبة تحقيق السعادة وتنمية الثروة ولكنها تعني تشبثه، وبكل ما يملك من قوة، ما يضمن له الوجود [لا موت non-mort].

تأتي وحدات البرد [أ'1] والجوع [أ"1] والموت [أ2] لتشكل مسارا صوريا يغطي فكرة اللاحياة في الحي. وتجد هذه الوحدات امتدادها الطبيعي في حي البراريك المعادل لفضاء الموت:

---

(1) J. Courtés,Introduction à la sémiotique narrative et discursive, Hachette, Paris, 1976,p. 46

"مع قدوم كل شتاء تقطع هذه الزنكات المنتشرة على الأسطح رؤوس خلق الله أو تشرد عائلات بكاملها"[1].

إن **الزنكات**، في هذا الملفوظ، تتعدى وظيفتها الأصلية المتمثلة في الحماية المؤقتة لتتحول إلى فاعل دينامي يقوم ببرنامج ذي طبيعة إجرامية: /قطع الرؤوس/. إن وظيفة /الزنك/ المقدمة بهذا الشكل ما هي إلا توسع صوري **لسوء تدبير الحاكم وغفلته عن النظر في مصالح العباد.**

تأسيسا على هذا، نلاحظ أن اشتغال الصورة في النص لا يمكن أن يحلل ويفهم إلا بالنظر إلى العلاقة التي تربط الصعيد السردي بالصعيد الخطابي حيث إن الأول يكرس الثاني ويدعمه. وهذا يقودنا للقول بأن الوحدات المعنوية المشكلة للمسار [أ] [جدول2] تتقدم لتعطي مبررا لـ فعل التهريب المؤسس على نظيرisotopie **الجوع**. لا يريد صالح من خلال هذا الفعل إلا /الخبز/ بوصفه رهانا للصراع كما يظهر ذلك جليا في الرسم العاملي الآتي:

الجوع [المرسل]　　　الخبز [الموضوع] ← صالح [المرسل إليه]

↙　　↑

صالح [الفاعل][2]

ومع ذلك، فإن محور التواصل communication [المرسل، الفاعل، الموضوع، المرسل إليه] معطل في أغلب الأحيان، وقلما يشتغل في اتجاه رغبة صالح وذلك بفعل وجود قوى [الجمارك] تحاول إفشال مسعاه.

يعكس محور الرغبة التوتر الموجود بين صالح وموضوع الرغبة [الخبز] المستهدف وتنقل هذا في اتجاه ذاك[3]. ويتجسد هذا المحور في الوحدات السردية المكونة لبرنامج التهريب:

---

(1) الرواية، ص. 160

(2) A. J. Greimas, Sémantique structurale, P. U. F, Paris, 1986, p. 180 .

(3) A. J. Greimas, J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette, Paris, 1979 , p. 305 .

-الذهاب إلى الحدود.

-الوصول.

-شراء البضائع.

-الرجوع.

-المطاردة.

/بؤس/ عكس /رفاهية/

/موت/ عكس /حياة /

/وفاء / عكس /خيانة/

↓ ↓

المسار [أ] عكس المسار [ب]

تقترن الوحدات المعنوية في المسار [ب] بفئة لا تملك **صورة اسمية** figure nominale، وغالبا ما ترد نكرة في صيغة الجمع ومتبوعة بملفوظ حالة يعكس وصلة الرجال بجهة القدرة: رجال قديرون [مسار ب: ب'2، جدول1] أو في شكل ضمير [يحيل على الفاعل المنفذ] ملحق بفعل: **هم يلعبون** [مسار ب:ب2، جدول1] يثبت القيم السلبية التي تؤمن بها هذه الفئة. غير أن الصورة الاسمية لهذه الفئة تتحقق في /السبايبي/ الذي يعد رمزا من رموزها.

ولئن كانت العلاقة التي تربط ضمير المتكلم في ب2 [جدول1] بضمير الغائب [هم] ذات طبيعة تراتبية nature hiéarchique، فإن استعمال ضمير الغائب يعبر عن رفض صالح لهذه الفئة ومعارضته لقيمها. فهو يرفض الحوار معها ليعلن صراعه ضدها وتمرده عليها. على هذا الأساس، يجسد المساران أ،ب [جدول1، 2] التقابل بين فئتين متناحرتين: فئة تؤكل وفئة تأكل وتنتفخ؛ فئة عبرت عن إيمانها بالثورة لقيت مصيرها في البؤس والشقاء والموت، وفئة عبرت عن خيانتها للثورة تستفيد **وتحتكر التجارات الكبيرة مع كبار المسؤولين**(1)

(1) الرواية، ص. 18

يعكس المساران [أ] و[ب] إذن حالة التناقض القصوى المدعمة بمفعول الحقيقة التاريخية في النص، والمتمثلة في /أولاد لاليجو/ [جدول1، مسار ب،ب1]. يحيل هذا النظيم الاسمي syntagme nominal على la légion التي تطلق:

"على الذين ما يزالون يتعاطفون مع فرنسا"[1].

تتماهى وجهة نظر الكاتب، في هذا الملفوظ، مع منظور الراوي. فهو يخرج التسمية من النص، يضعها في الحاشية، يردها إلى أصلها ويدرجها في سياقيها الاجتماعي التاريخي: تملك هذه الفئة الغنية معادلا موضوعيا في الواقع؛ ذلك أنها موجودة حقيقة في المجتمع. تعاطفت مع المستعمِر في **زمن مضى** [خبر لا يحتمل الكذب] واستفادت من تواطؤها في **الزمن الحاضر** مع "كبار المسؤولين".

إن الصفة كبار جاءت متقدمة على الاسم لتعكس، أولا، المرتبة العليا التي يحتلها المسؤولون المتورطون مع الفئة الخائنة في هرم السلطة، ثانيا، التغلغل الأفقي لهذه الفئة في صلب النظام السياسي محدثة بذلك اختلالا في موازين القوى وتعطلا في الدورة العادية لهذا النظام يعكس القطيعة الموجودة بين الحاكم والمحكوم [جدول1، مسار ب، ب8]:

"يلعبون بدمنا ويوزعونه على أغنياء البلد أوراقا وفيلات وكباريهات ومراقص"[2].

يحكم هذه الوحدات المضمونية عالمان دلاليان: عالم الفقر والموت، وعالم الغنى والحياة. يسخر /الدم/ بوصفه رمزا للموت لتحقيق المتعة أولا ولتجسيد الدرجة القصوى التي يصل إليها التعذيب ثانيا. من هنا، يتحول المسؤول إلى شخصية سادية تتمتع بآلام الآخرين[3].

---

(1) نفسه، ص. 17-152

(2) نفسه، ص. 17-152

(3) A. j. Greimas , Du sens II , Essais sémiotiques , Paris , 1983 , p. 242 .

وتقوى هذه المتعة بتوزيع الهبات **الكمالية** إلى غير مستحقيها.

على هذا النحو، يضع صالح الفئة التي ينتمي إليها طرفا في الصراع مع الفئة الحاكمة. يتبلور هذا الصراع، كما لاحظنا ذلك، في السياق التحويلي المؤسس على ثنائية /الأخذ/ و/العطاء/[1] المجسدة لتواطؤ الفئة الحاكمة مع الأغنياء ضد فئة الفقراء.

يشكل التواطؤ والتوزيع الجائر للثروات نقطة تلاق بين الماضي والحاضر وتبقى العلاقة **واحدة** وفي جميع الحالات وإن تغير الزمن:

"لو كانت أراضي نجد خصبة ووزع خصبها بالعدل ما ركبت الجازية سرج عودها ونقلت مضارب خيامها إلى حدود الموت"[2].

يكتسي الارتداد في هذا الملفوظ أهمية بالغة باعتباره فعلا يحقق الترابط التاريخي على صعيد النظير الاقتصادي: هؤلاء يوزعون الخصب وأولئك يوزعون الفيلات: إن الفاعل الجماعي [فئة الفقراء] في كلتي الحالتين **واحد** والنتيجة **واحدة**: **التهريب والهجرة والموت**. لا يلتقي الماضي بالحاضر إلا ليكرس انعدام التواصل بين الحاكم والمحكوم. وهذا يقودنا للقول بأن المسار [أ] والمسار [ب] [جدول2،1] لا يلتقيان أبدا. ويجسد توازيهما الصراع القائم بين الفئتين والحصار الذي ضربته الفئة الغنية على الفئة الفقيرة.

ولئن كان هذا الحصار على، صعيد الظاهر paraître، غائبا، فإنه على صعيد الكينونة être مكرس تكريسا يعكس غفلة الحاكم عما يجب أن يقوم به:

"سيزور الوالي المنطقة كالعادة إذن سيزينون الشوارع يذبحون الذبائح يشوون ويعود الوالي مسرورا جازما بأن الرعية تمشي باستقامة وقد ينسى مهمته"[3].

---

(1) Jean Claude Coquet , Le discours et son sujet , Klinksieck , Paris , 1985, p. 115

(2) الرواية، ص. 21

(3) نفسه، ص. 145

تشتمل الوحدات السردية، في بداية هذا الملفوظ، على الزيارة الاستطلاعية التي يقوم بها الوالي للقرية [ويكون الهدف منها إقامة التواصل مع الرعية في سبيل معالجة المشاكل التي يتخبطون فيها: جدول1، مسارأ]. غير أن هذا البرنامج سرعان ما يعلق ليفتح على برنامج جديد يخص التحضير الرسمي لاستقبال الوالي.

استنادا إلى المعطيات النصية، يرتكز البرنامج الجـــديد على ضمير الغيبة هم [يزينون، يذبحون، يشوون] بوصفه فاعلا جماعيا يقتصر دوره على تنفيذ الأوامر المرهونة في وجودها إلى هيئة سردية instance narrative فاعلة تتحكم فـــي آليات تحويل القرية من منظرها **القبيح** إلى منظر **جميل**. ويمكـــن أن نفتـــرض أن زيارة الوالي للمنطقة تتم بناء على:

أ-دعوة رسمية يوجهها المسؤول الأول على القرية [الهيئة السردية الفاعلة: رئيس البلدية] للوالي بهدف معالجة الأوضاع المتردية التي تعاني منها الرعية.

ب-رغبة الوالي في تقصي حقيقة شؤون الرعية.

من الواضح أن هذه الإمكانات السردية غير واردة في النص على طول الخط السردي. ويبدو رئيس البلدية [كهيئة سردية مضمرة] فاعلا في التحويلات التي تتضمنها الوحدات السردية الآتية:

[1] تزيين الشوارع
[2] ذبح الذبائح
[3] الشواء

تأسيسا على الاستنتاجات السابقة [جدول1،2، مسار أ]، يشتغل الديكور الخارجي للقرية في الملفوظ [1] كقناع يخفي كينونة الرعية ويوحي في الظاهر بالمنظر الجميل للقرية الذي يتبدى على أنه مطابق (؟) للوضع السعيد المتوافق مع سيم sème /الغنى/ (الملفوظان [2]،[3]). يسعى رئيس البلدية إذن إلى تثبيت الحالة الآتية:

لا كينونة + ظاهر

انطلاقا من المعطيات النصية [جدول2، مسار أ]، نلاحظ أن هذه الحالة كاذبة ولا تعكس الوضع الحقيقي لأهل القرية. ومع ذلك، فإن رئيس البلدية استند إليها ليمارس فعله الإقناعي faire persuasif على الوالي في سبيل حمله على الإقتناع بأنه مؤهل ويؤدي واجبه على أحسن وجه.

إزاء هذا النشاط المكثف [ديكور، ذبح، شواء]، يجد الوالي نفسه أمام أحد الأمرين:

-إما أن يستسيغ اللعبة، ويخضع لقواعدها،و يأكل المشوي. إن هذه الإمكانية السردية مثبتة في النص وتتجلى على المستوى الخلاقي axiologique في السرور [وعاد الوالي مسرورا] بوصفه قيمة تيمية thymique[1] تعبر عن ارتياح الوالي لرئيس البلدية وثقته به. وتعبر أيضا، على المستوى التقويمي، عن اعترافه بأداءاته[2].

-وإما أن يرفض قواعد اللعبة، يسقط القناع، ويقوم بعملية تحقيق، من خلال الاتصال المباشر بالرعية، تولد برنامجا سرديا مضادا يتأكد الوالي عبره فيما إذا كان الظاهر مطابقا فعلا للكينونة.

نلاحظ أن هذه الإمكانية السردية غير واردة في النص، ويكتفي الراوي بتقديم وجهة نظر صالح في الملفوظ الآتي:

"وقد ينسى مهمته"

يعد نسيان المهمة تقويما سلبيا لنشاط الوالي. إنه يعكس غفلة الحاكم عن الرعية وانقياده لاحتكار التجارات وتواطؤه مع أغنياء البلد [جدول1، المسار ب، ب8]، ويعكس أيضا شعور صالح إزاء الوضع المتردي الذي آلت إليه القرية، وما

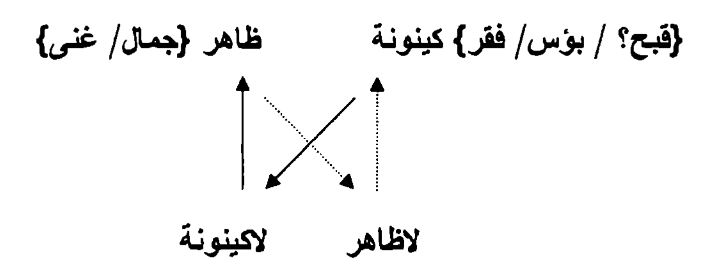
---

(1) Joseph Courtés, Analyse sémiotique du discours, Paris , 1991, p. 33 .

(2) Op,pp. 98-99 .

يترتب عنه من فقر، وبؤس، وجوع، وبرد. وهي صور تضفي على القرية **منظرا قبيحا**.

يمكن صياغة حالات وتحويلات مساري الحاكم وصالح انطلاقا من مربع سيميائي carré sémiotique نبين فيه الدورة الدلالية للعبة القبح والجمال المتمفصلة على صعيدي الظاهر والكينونة والتي تشيد عليها وضعية كل فاعل في المسار السردي الذي ينتمي إليه:



يصف الراوي في البداية [جدول1، مسار أ] وضعا يتسم بقساوة العيش في القرية مما يضفي عليها جوا حزينا ومنظرا قبيحا. غير أن هذه القرية تعرف تحولات سطحية تكشف عن ديكور جديد يعطي للقرية منظرا جميلا يوحي بالتغيير الجذري للبنية الاجتماعية. وتظهر هذه الرسالة التي يريد رئيس البلدية تمريرها للوالي في المربع السيميائي على النحو الآتي:

{الرعية تمشي باستقامة} ينونة ظاهر

↑ ↙

لا كينونة

وحتى يتم تبليغ هذه الرسالة، يجد رئيس البلدية نفسه مضطرا لانتقاء المدعويين في الحفل الرسمي. بعبارة أوضح، حتى لا ينفضح أمره لا بد أن يفرض حصارا على الفئة الكبيرة المتضررة في القرية والتي تعاني من البرد والفقر والبطالة. إن هذه النقلة من الكينونة إلى الظاهر مرورا بنفي العنصر الوسيط:

اللاكينونة [كينونة ← لا كينونة ← ظاهر] هي في الواقع إقصاء للفئة المتضررة إقصاء يستطيع رئيس البلدية بفضله أن يظهر الحالة الكاذبة على أنها صادقة ويفتك منه التقويم الإيجابي لبرنامجه:

"الرعية تمشي باستقامة"

والحقيقة أن هذا التقويم يحدث لصالح مفارقة عجيبة: كيف يمكن للشوارع أن تزين والذبائح تذبح وتشوى و"الزنكات تقطع رؤوس خلق الله"، والرعية تأكل حرفة الجوع ويعبر الوالي عن سروره؟ كيف يوضع ديكور **جميل** في حي البراريك **القبيح**؟

إن صالح مدرك لهذا التناقض الموصوف، ومقتنع بأن الوالي لا يرقى إلى معرفة كينونة القرية والرعية بسبب **لغة الإقصاء** التي أضحت الشكل التواصلي الوحيد المهيمن في أوساط المسؤولين. ويتقدم الملفوظ: "وقد ينسى مهمته"، المعبر عن وجهة نظر صالح، بوصفه أطروحة تنفي الظاهر المزيف وتثبت الكينونة الحقيقية للرعية:

كينونة ظاهر

↑ ↘

لا ظاهر

تكشف لنا هذه الدورة عن نظام اللعبة الذي تعتبر السلطة محركه الأساسبي من حيث قدرتها على التمويه والمخادعة في تعاملها مع المشاكل **المعقدة**.

تأسيسا على ما سبق، يمكن أن نستنتج أن الوحدات المعنوية في المسار ب [جدول2] تتجانس دلاليا تجانسا يعرب عن طبيعة النظام المتماسك للفئة الغنية المتواطئة مع السلطة. ولئن كان هذا النظام لا يظهر سرديا في النشاط الصراعي للراوي، فإنه حاضر بقوة على الصعيد الخطابي عبر التجليات الصورية المثبتة في

المسار [ب]، وعبر مفعولاته على الصعيد التناظري الاقتصادي محدثا بذلك عالما مضطربا تتجانس فيه وحدات التشرد والجوع والموت.

وتعتبر الهوة الطبقية التي: "بلغت حدا لن تلتقي فيه طبقة بأخرى إلا على أنقاض الأخرى"[1] المعادل الموضوعي للثنائيات الضدية التي تخترق المسارين أ وب [جدول2] وتمنحهما التجانس الدلالي:

أ ' 2 عكس ب1

أ3 عكس ب2

أ '3 عكس ب'2

أ '''3 عكس ب''2

أ '5 عكس ب3

أ7 عكس ب4

↓ ↓

موت عكس حياة

↓ ↓

مسار أ عكس مسار ب

إن التوازي بين المسارين أ وب يفسر، من جهة، رفض صالح وبشكل نهائي التعامل مع السبايبي في مشروع تهريب الأغنام، ومن جهة ثانية، وعيه بالاستغلال الذي مارسه عليه على نحو ما يظهر ذلك في البنية الصراعية الآتية التي تتصدرها رغبته في الحفاظ على القيمة المادية لثروته الحيوانية المهددة:

"... والأغنام مهددة"[2]

---

(1) الطاهر وطار، بوادر الوعي الطبقي في الرواية. مجلة الثقافة والثورة، ديوان المطبوعات الجامعية، عدد1، 1976، ص. 56 عن واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص. 538.

(2) الرواية، ص. 101

"تقطع بها الحدود وتأتيني بالدراهم"[1]

وفي سبيل تحقيق الوصلة بينه وبين موضوع رغبته، يعرض على صالح برنامج تهريب يأتلف من الوحدات السردية الآتية:

- تأخذ الغنم.
- تهربها.
- تقطع بها الحدود.
- تأتي بالدراهم.
- حصتك مضمونة[2]

يتبدى برنامج التهريب، في هذه اللحظة من السرد، في شكله المضمر مادام صالح لم يبرم العقد مع السبايبي ومادامت الشروط الموضوعية لم تتوفر بعد ليتأسس صالح فاعلا ديناميا يتمتع بإرادته الخالصة في رفض أو قبول الصفقة. بعبارة أخرى، إنه لم يمتلك بعد القيم التي تؤهله لأداء برنامج التهريب؛ ذلك أن قيمة الجهة بوصفها موضوعا لم تدخل في وصلة بجهة كفاءته. تأسيسا على هذا، نقدم صياغة الوضع السردي في هذه اللحظة على النحو الآتي:

فاعل الحالة U موضوع الجهة

صالح U الرغبة في الفعل

تتلخص النتيجة التي يريد السبايبي تحقيقها في الصياغة الرمزية التالية:

ت. س[تحويل سردي] ← [ف(صالح) U م. ج(الرغبة في الفعل)] ← [ف ∩ م. ج]

نلاحظ، من خلال هذه الصياغة، أن السبايبي يمارس، من الموقع الذي يحتله كمحرك manipulateur، على صالح بهدف إشعاره بأن تنفيذ برنامج تهريب الأغنام يمكنه من الخروج من وضعه المتردي.

---

(1) نفسه، ص. 101

(2) نفسه، ص. 102

يتجلى التحريك manipulation[1] في حكمه الإيجابي على قدرته:

"أعرف أنك قادر..."[2].

وفي سبيل افتكاك قبوله، يعمل السبايبي على إقناعه بأن الحكومة متقاعسة ولا تملك القدرة [على] ولا الرغبة في توفير مناصب شغل لرعيتها:

"الحكومة. أخدم يا التعس للناعس. مازلنا نحلم بالأرض وبالسد، مجرد حلم"[3].

ولئن كان صالح يرفض السقوط في العملية التحريضية والانقياد لمشروعه، ولا يستسيغ انتقاده للسلطة من موقع مصلحته، فإنه يدرك أن السبايبي لا يملك من القدرة ما يؤهله لحمايته في حالة توقيفه:

"–و إذا ألقي علي القبض؟"[4].

---

(1) تراجعنا في هذه الدراسة عن ترجمة الاستعمال بوصفه مقابلا لـ:manipulation ذلك أننا أدركنا من خلال معاينتنا للوضع المصطلحي في الدراسات اللسانية والسيميائية العربية الراهنة أن مصطلع الاستعمال يوضع في الأعم الأغلب كمقابل لـusage. وتبنينا بعديا مصطلح الإيعاز للدكتور عبد الحميد بورايو. وقد تبين لنا أنه يحيل فقط على جانب مفهومي واحد في المصطلح [الأمر] ولا يغطي مساراته الدلالية الفرعية. ولحل هذا الإشكال، ملنا إلى استعمال مصطلح التحريك للدكتور بن كراد سعيد في كتابه الموسوم: "مدخل إلى السيميائيات السردية، (دار تينمل للطباعة والشر، مراكش، المغرب، 1994). وهي الترجمة نفسها التي وضعها أستاذنا الدكتور دانيل ريغ في قاموس السبيل (لاروس، باريس، 1983). وإذا دققنا النظر في هذه الترجمة نلاحظ أن التحريك يحقق الفاعلية من جانب واحد (المحرك) ولا يشمل اللحظة التي قد يتم فيها التواصل المبني على الخطاب البرهاني (الذي تسخر فيه وسائل الإقناع سواء تعلق الأمر بالمحرك أو فاعل الحالة). لهذه الاعتبارات النظرية نتحفظ في استعمال التحريك ونقترح على السادة الأساتذة المتخصصين مصطلح التفعيل المشتق من فعّل الذي يغطي المسارات الدلالية لـفعل الفعل Faire-faire. وقد عرضنا هذه الترجمة على الأساتذة بورايو عبد الحميد، بوزيدة عبد القادر، وبيرنار بوتي(مؤخرا في جلسة علمية جمعتني به بتاريخ 2000/1/4 في باريس) الذين أبدوا اقتناعهم بهذه الترجمة.

(2) المرجع السابق، ص.102

(3) نفسه، ص.102

(4) الرواية، ص. 102

تأخذ بنية التحريك، بهذا الشكل، طابعا صراعيا[1] يفضي إلى رفض صالح برنامج التهريب على نحو ما تؤكد ذلك الملفوظات السردية الآتية:

"-أنا صحيح، فقير وجائع لكن بكل تأكيد لن أتحول جروا في يديك"[2].
"-تافهون يتصورون كل الناس قابلين للبيع والشراء"[3].
"-لا يا السبايبي..."[4].

تستمد أداتا النفي /لن/ و/لا/ أهميتها من وعي صالح بأن الفئة الفقيرة استعملت عبر التاريخ، وأن التحريك بهذا المعنى يبلغ غايته القصوى في استغلال وتشييء الإنسان. إن هذه القناعة الراسخة في ذهن صالح محصلة لتقويم **sanction** مبني على فعله التأويلي **faire interprétatif** الممارس على تجاربه الخاصة. ويمكن أن نفهم هذا الفعل استنادا إلى الجدول2 [المساران أ وب].

يبدو صالح منذ البداية متمردا على الوضع الاجتماعي، حاقدا على أولئك الذين نموا ثرواتهم بطريقة غير شرعية [ب'''2 مسار ب] واستغلوه وضربوا حصارا عليه في سبيل منعه من الدفاع عن حقه في العمل.

فإذا كانت الرموز أ2، أ'3، أ''3، أ4 [مسارأ] تتوافق مع مرحلة اليأس، فإن الرموز ب1، ب2، ب3 [مسار ب] كفيلة بإعطاء صورة حقيقية عن الأسباب الموضوعية التي أدت إلى تكريس الهوة الطبقية بين فئتين متمايزتين في المجتمع: فئة تنعم باستقرارها وثباتها وامتيازاتها، وفئة تشقى بتنقلاتها، وهجراتها إلى الحدود البعيدة، وحقوقها الضائعة. ويبدو التحالف في هذا العالم السديمي مستحيلا. لهذا السبب وابتداء من المقطوعة ن هـ [رسم1]، يدخل صالح في عالم الغموض

---

(1) Groupe d'Entrevernes, Analyse sémiotique des textes, P. U. L , Lyon, 1984, p. 55

(2) الرواية، ص. 102

(3) نفسه، ص. 102

(4) نفسه، ص. 102

واللاتواصل؛ ويأتي اختفاؤه في النقطة هـ تعبيرا عن اغترابه وفشله في التواصل مع الهيئات الرسمية وقطيعته مع عالم المهربين.

قد لا نبتعد عن الصواب إذا قلنا إن القارئ كان يتوقع هذا الوضع المسدود الذي آل إليه صالح منذ بداية الرواية وذلك من خلال المنظور النصي المؤطر للعلاقة الموجودة بين صالح وفعل التهريب. إن تنامي القصة في هذا الاتجاه ومن هذا المنظور ما هو إلا تثبيت لهذا التوقع.

والحقيقة أن العلاقة التي تربط صالح بمهنة التهريب عرفت تحولات كان لها عميق الأثر في تأطير الحدث السردي وتوجيهه على النحو الذي يرغبه صالح.

لنر الآن من خلال الملفوظات السردية الآتية كيف بدأت هذه العلاقة وتطورت بشكل تصاعدي من أول القصة إلى آخرها:

المقطوعة أ ب "الميزيرية الكحلة والترباندو والموت"[(1)] "المهنة القذرة يا المسيردية، داخلها [أنظر الملحق 1] ← مفقود والخارج منها مولود"[(2)] "تأكل حرفة الجوع"[(3)]

المقطوعة ب ج "...أني أهرب إلا لأعيش"[(4)] "...وعمر الهارب لا يطول"[(5)]
← ". . . وحتى مهنة التهريب قذرة بشكل مقرف"[(6)].

المقطوعة ج ح "نيتي كبيرة للتوقف عن ممارسة هذه المهنة القذرة–حرفة كلاب–"[(7)] " فهذه الصنعة
← فاسدة، لم تعلمنا إلا الذل وطحن كبريائنا أمام أحقركلاب أولاد اليجو "[(8)]

---

(1) الرواية، ص. 17
(2) نفسه، ص. 19
(3) نفسه،ص. 24
(4) نفسه، ص. 28
(5) نفسه، ص. 28
(6) نفسه، ص. 28
(7) نفسه، ص. 42
(8) نفسه، ص. 42

المقطوعة ح د ← "إذا استطعت أن أترك هذه المهنة القذرة سأتركها حتما. سأتزوج إذا وجدت شغلا"[1]

المقطوعة د ر ← "كرهت من رب هذه المهنة القذرة"[2]

المقطوعة ك م "أقسم صالح بن عامر الزوفري في أعماقه، أنه لن يعود إلى صنعة الهم ←التي لم تعلمه إلا المذلة والبكاء..."[3]

المقطوعة ن هـ "مهنة تعسة لم أطلبها أبدا"[4] "غدا سأبحث عن عمل"[5] " وإذا دخلنا الثورة ← الزراعية سنتخلص حتما من هم صنعة الموت"[6]

المقطوعة هـ و "... كلام الناس يعيدني مجبرا إلى مهنة التعاسة"[7] " لم أكن أنوي العودة ← إلى هذا المرض القاتل"[8].

المقطوعة و ي

← "هم الذين دفعوني إلى هذه النهاية الملعونة"[9] "...عدت إلى حرفة قديمة لأكسب قوتي اليومي"[10] "... سنجد شغلا ونبني من هذا الركام حياة رائعة. إذا لم يكن البراج سأتحول إلى حطاب"[11] "ذكرته بأن اسمه مسجل لدى دار البلدية

---

(1) نفسه، ص. 52

(2) المرجع السابق، ص. 73

(3) نفسه، ص. 100

(4) نفسه، ص. 118

(5) نفسه، ص. 141

(6) نفسه، ص. 146

(7) نفسه، ص. 182

(8) نفسه، ص. 182

(9) نفسه، ص. 201

(10) نفسه، ص. 201

(11) نفسه، ص. 210

ويمكن الالتحاق بالعمل في أية لحظة"[1]. "سألتحق بشغلي"[2] "اطمئني يا لونجا. عندما أعود. سنتزوج رسميا ونلتحق بالسد"[3]

إن الانتقال من المقطوعات السردية أب، ب ح، ج ح إلى المقطوعة ك م يعكس تحولا أساسيا في بنية الجهات structure des modalités وتطور صالح من عالم سلبي إلى عالم إيجابي، من عالم مضطرب إلى عالم متوازن. فهو آخذ في التوغل في الحقيقة الاجتماعية والخروج التدريجي من لعبة نظام التهريب. ويبدو هذا النظام من منظور صالح مقترنا، تارة، بصور /البؤس/ و/الموت/ و/القذارة/، ومعادلا، تارة أخرى، لصورة /الجوع/. إنه مشحون، في كل الحالات، بقيم ذات إيحاء سلبي.

تأسيسا على هذه المعطيات، يتحول هذا النظام إلى موضوع رسالة objet message يقدم مهنة التهريب على أنها نفي للقيم الخالصة ["هذه الصنعة فاسدة"]. وهذا ما يفسر شعور صالح الاحتقاري تجاه هذه المهنة. ويمكن أن نلمس هذا الشعور في العلاقة الموجودة بين صالح وفعل التهريب.

تظهر المقطوعة أب علاقة التنافر القائمة بين صالح وفعل التهريب الذي يتركب من مؤتلف دلالي تتجانس فيه قيم البؤس والقذارة والجوع المحدثة لعالم الموت [مسار أ، جدول2]. يصل صالح في هذه المقطوعة إلى حالة التناقض القصوى: فهو لا يعرف نفسه في هذه القيم ولا يرغب [لا يريد] في مهنة التهريب، وفي الوقت نفسه يجب أن يمارسها حتى يضمن وجوده. إنه يثبت وجوب الفعل لاعتقاده بأنه يقود إلى الحياة. والحقيقة أن وجوب الفعل لا يقود إلى الحياة بل يقود إلى حدود الموت ["الميزيرية الكحلة والترباندو والموت"].

(1) نفسه، ص. 211

(2) نفسه، ص. 211

(3) نفسه، ص. 216

إن هذا الإشكال يدعونا إلى التساؤل فيما إذا كان وجوب الفعل[1] كاف لتحقيق التهريب. في الواقع، إن هذا العنصر، وإن كان وجوده ضروريا، فهو غير كاف لتحقيق هذا الأداء.

استنادا إلى المقطوعتين أب وب ج، والملفوظات السردية الآتية:

"أعرف أنك قادر..."[2]

"كه كه. هل وجدت شيئا. هذه يا صديقي أملاك المسيردية والجازية الله يرحمها"[3]

الدراهم التي أربحها من بيع الكتان..."[4]

نلاحظ أن وجوب الفعل يقترن ضمنيا بالقدرة على الفعل pouvoir-faire ومعرفة الفعل savoir-faire ويتضح ذلك في قدرة صالح على التمويه ومخادعة الجمارك ومعرفته الدقيقة لفضاءات أداءاته [الحدود]. وتخضع هذه الجهات، على الصعيد النظمي syntagmatique، للتوجيه الآتي:

{وجوب الفعل } ← { القدرة على الفعل/ معرفة الفعل} ← الأداء

يمكن صياغة هذه الجهات التي يخضع لها مشروع التهريب في الجدول الآتي:

الكفاءة		الأداء
الجهات المضمرة	الجهات المحينة	الجهات المحققة[5]
وجوب الفعل	القدرة على / معرفة الفعل	فعل الكينونية[6]

(1) يعتبر وجوب الفعل devoir-faire واحدا من العناصر الأربعة المشكلة للكفاءة.

(2) امرجع السابق، ص. 102

(3) نفسه، ص. 42

(4) نفسه، ص. 28

(5) modalites virtualisantes, modalites actualisantes, modalites realisantes.

(6) يتحقق فعل الكينونة faire-etre في وصلة الفاعل بالموضوع.

إن كراهية صالح لهذه المهنة تزداد حدة في المقطوعة ج ح، وتتعزز رغبته في التوقف عن ممارستها ["نيتي كبيرة..."] باقتران إرادته التدريجي باللافعل vouloir- ne pas faire.

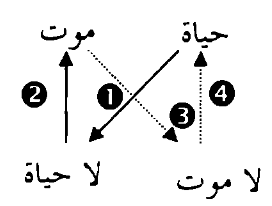
ومع المقطوعة السردية ج د، ينشأ موضوع جهة جديد يشكل دخوله في وصلة به عاملا أساسيا في بناء قدرته على التخلي عن مهنة التهريب pouvoir- ne pas faire. ويفضي هذا الوضع السردي إلى تنامي كفاءته في اتجاه التحري عن منصب شغل.

في المقطوعة د ر، تقوى درجة توتر صالح وتتسع الهوة بينه وبين فعل التهريب اتساعا يعكس عدم توافقه مع جماعة المهربين، ويأسه من مهنة تقود إلى الموت.

إن التنامي التصاعدي الذي يبلغ ذروته في المقطوعة ك م باتخاذ صالح قراره الحاسم، هو في الواقع محصلة لاقتناعه بضرورة إحداث القطيعة مع نظام يفرز قيما تعمل على إذلاله. تجسد هذه اللحظة السردية اكتمال كفاءته واستعداده لتحقيق أداء رفض مهنة التهريب.

ولئن كان هذا الأداء يعني بكل بساطة قطع مصدر عيشه، فإنه في مستوى سردي آخر [المقطوعة ن هـ]، سيولد لديه رغبة جديدة تؤسسه فاعلا منفذا sujet opérateur في برنامج التحري عن منصب عمل. تتقدم الثورة الزراعية في هذه التجربة بوصفها فاعلا مساعدا adjuvant ينقله من اللاحياة إلى الحياة.

إذا نظرنا مليا في البنية العميقة للمقطوعات السردية المضبوطة سلفا، يمكن أن نصوغ دورتها الدلالية في المربع السيميائي carré sémiotique الآتي:



تتقدم اللاحياة في المربع كنفي لقيمة /الحياة/، وتعكس في الوقت نفسه تشرد صالح وضياعه في عالم المهربين الذي يقود إلى حدود الموت:

حياة   موت

❶↙   ↑❷

لاحياة

ويبدو خروجه من هذه المنطقة الخطيرة مرهونا بإعادة النظر في مهنته المشحنة بقيم لا يعرف نفسه فيها. وبالتالي، فإنه أمام امتحان صعب ومهمة أساسية تختلف عن تلك المهمات التي تواجه البطل في الحكايات الشعبية. فعوض أن يتصارع مع قوة مستقلة عن كيانه فإنه يتصارع مع نفسه؛ قوة تقوي رغبته في التهريب وتسود نظرته إلى السلطة، وقوة تعزز قناعته بأن هذه المهنة ليست في نهاية الأمر سوى المعادل الموضوعي للموت. تظهر تجليات الاضطراب بين القوتين، بشكل واضح، على صعيد الجهات plan des modalités في تردده [المقطوعتان ج ح، ح د] الذي يحتل منزلة وسطى بين الحياة والموت [لا موت].

إن تنامي القصة في هذا الاتجاه وبشكل تصاعدي يفضي في المقطوعة ك م إلى وضعية يقسم فيها صالح **ألا يعود إلى صنعة الهم**. يستعمل /القسم/ على المستوى المعجمي للدلالة على مسارين دلاليين:

-يحيل المسار الأول [اليمين بالله] على مرجعية دينية تلمس من خلال العقد contrat الذي يلزم فيه صالح نفسه أمام الذات الإلهية بتشريف العهد الذي قطعه على نفسه.

-يحيل المسار الثاني(*) على إمكانية دلالية تعكس في النص تنامي مسار الجهات لصالح وارتقائه من الشك والتردد [المقطوعتان ب ج، ج ح] إلى اليقين [المقطوعة ك م].

(*) القسم هو أن يقع في قلب الإنسان شيء فيظنه ثم يقوى ذلك الظن فيصير يقينا.

ولئن تمت هذه النقلة بنفي الموت أولا وتثبيت منطقة الحيـــاة ثانيا [موت← لا موت ← حياة]، فإن ولوج هذه المنطقة يظل مشروطا بتحري صالح عن منصب شغل ودخول الثورة الزراعية حيز التطبيق [المقطوعة ن هـ].

غير أن الأحداث في هذه الوضعية تنزع في النهاية [المقطوعة ن هـ] منزعا مأسويا نتيجة لـ/كلام الناس/ الذي أفتر رغبته، وبدد أحلامه، وأعاده إلى المنزلة الوسطى المتسمة بالاضطراب بين اللاحياة والموت:

حياة موت

❶↙ ↑❷

لاحياة

كيف يمكن أن نضبط التجليات السردية لهذا الوضع الممثل في البنية العميقة؟ وكيف يتحول كلام الناس إلى سلطة مقوضة ومدمرة لقدرة صالح ورغبته [على] في التخلي النهائي عن التهريب؟ من حقنا أن نتساءل عن الجهات التي أسهمت في صنع هذا القرار ولأية غايات؟

حتى نصوغ إجابات على هذه التساؤلات، سنقوم بمعاينة المقامات السردية التي تتصدر إعلان صالح عن رغبته في الانتقال إلى منطقة الحياة.

تأسيسا على المعطيات النصية، تترجم هذه الرغبة على الصعيد السردي [في المقطوعة ن هـ] بانتقاله إلى فضاء البلدية وعزمه على الدخول في وصلة بموضوع تحريه:

"سأنزل إلى البلدية (...) سآخذ حقي"[1]

وبمجرد وصوله إلى الفضاء الرسمي، تبدأ المواجهة بينه وبين الميلود، و تولد نظرته إلى الجدار برنامجا جديدا يتحدد فيه موقع كل فاعل وعلاقته بماضيه:

---

(1) الرواية، ص. 148/118

"-عمي صالح، تحتاج إلى شيء؟؟؟ لم ينتبه له. كانت عيناه عالقتين بجدران الحجرة وبسقفها"

"-بابا صالح. مالك ساهي في الحيط"[1]

يؤدي صالح في هذا الملفوظ دور الفاعل الملاحظ sujet observateur[2]. تقتصر ملاحظته على نظرة لم تكن عادية أو عابرة، بل تأخذ حيزا من الزمن كبير أتعب صالح وأثار انتباه المسؤول:

"لكن عينيه (...) أتعبتاه"[3]

من هنا، تحمل ملاحظته بـ/النظرة/ سلطة تبليغية pouvoir communicatif، ويفهم المسؤول **رسالة النظرة** le message du regard، فيترجمها كلاما من موقع الفاعل النائب sujet délégué. إنه ينوب عنه في ترجمة النظرة وقراءة الصورة:

"هذه صورة نابليون، منقوشة على الجدار من زمن فرنسا. لا البلدية نزعتها ولا نحن انتبهنا لها. ايه زمن رايـــح وزمن جـــاي، وكلها دنيا واحدة"[4].

تكتسي صورة نابليون المعلقة أهمية خاصة لحمولتها التاريخية المدركة على حدي الثنائية الضدية الآتية:

/فوق/ عكس /تحت/

[نابليون]　　[المسؤول]

---

(1) نفسه، 148/118

(2) Joseph Courtés , Analyse sémiotique du discours ,Hachette , Paris ,1991 ,p. 58

(3) الرواية، ص. 149

(4) المرجع السابق ،ص. 148/118

تأسيسا على اعتبارات تاريخية محضة، تعني /فوق/ السيادة الفرنسية على الجزائر. وتدل /تحت/ على رضا المسؤولين بهذا الوضع، وتعاطفهم مع فرنسا، ورغبتهم في إعادة إنتاج تجربتها. وهذا ما يحمل الميلود على اختصار الزمنين [قبل وبعد 1962] في زمن واحد و/دنيا واحدة/، وعلى الاعتراف بأنه لا يوجد اختلاف أو تمايز بين /زمن رايح/ و/زمن جاي/:

"لو عرفت قساوة الزمن الأول، كنت غيرت رأيك حتما في الصورة"(1).

ينتقل صالح في هذا الملفوظ من الملاحظة بـِ **النظرة** إلى الملاحظة بـِ **الكلمة**. سيوضح رأيه حول تعليق الصورة بالكلمة استنادا إلى المعرفة التاريخية التي يملكها والتجربة المرة التي عاشها في /الزمن الأول/. فهو يقابل تجربته بتجربة المسؤول مقابلة تولد الثنائية الضدية الآتية:

الزمن الأول { قساوة / حنان}

إن صالحا لا يرفض الصورة في كيانها المحايث immanent، بل يرفضها لكونها رمزا يحيل إحالة شفافة على الحضور الفرنسي في الجزائر. وليس الرفض في حقيقة الأمر سوى تقويم سلبي لفعل /قاس/ نابع من صلب الجهاز الاستعماري. بخلاف صالح، لم يغير المسؤول رأيه في الصورة معترفا في ذلك بتعاطفه مع الجهاز الاستعماري. يعتبر تعليق الصورة تقويما إيجابيا لزمن يتميز بـِ /حنان/ المستعمر عليه ويرقى، في مقابل ذلك، هذا التقويم بفعل التعليق إلى الجزاء الإيجابي:

&{ "يا سيدي ماذا تغير. بيار راح وموح جاء"(2).

$}"...لم يصدق نفسه أبدا. يحدث هذا معه لأول مرة"(3).

---

(1) نفسه، ص. 149

(2) نفسه، ص. 149

(3) نفسه، ص. 149

يبدو المسؤول في الملفوظ [&] مقتنعا اقتناعا كليا بأن الوضع بقي على حاله وأن القطيعة مع جهاز الممارسات الاستعمارية المجتمعة في صورة /القساوة/ لم تحدث. ولئن تغيرت الأسماء في الظاهر، فإن المسمى في الباطن واحد؛ "بيار راح وموح جاء". وجهان مختلفان لعملة واحدة وجهاز واحد وزمن واحد ودنيا واحدة.

في الملفوظ [&]، يفقد صالح توازنه. فهو أمام حالة خاصة. /لم يصدق نفسه/ لأنه لم يتصور أبدا أن المستحيل سيصير /ممكنا/. ويتجاوز هذا التحول توقعاته المبنية على قدرته النضالية في الزمن الأول. لقد وقع انحراف عن نظام القيم الذي ضحى من أجله وتوقع تجلياته في الزمن الثاني:

"خرّجناكم من الباب دخلتم من الطاقة"[1].

ينهض هذا الملفوظ على المختلف الدلالي الزمني المولد للثنائية الآتية:

[تخريج] : خروج ← دخول

الزمن الأول عكس الزمن الثاني

↓ ↓

قبل عكس بعد

بناء على هذا التوزيع، يفترض/ التخريج /في الزمن الأول "قوة" تمارس فعلها في الفئة التي ينتمي إليها المسؤول. وتتدرج هذه الممارسة ضمن البرنامج التحريري المضاد للبرنامج الاستعماري. تعتبر خطورة صالح في البرنامج الأول معطى ثابتا في النص:

"قالوا أن ماضيكم يكتنفه الغموض. وقد وصلتني نسخة مصورة من ملفك القديم".
"-(...) ومكتوب عليها..."

---

(1) الرواية، ص. 149

- élément dangereux عنصر خطير"[1].

وتتجلى الممارسة الخطيرة للتخريج في الرسم العاملي على النحو الآتي:

{فقر/ اضطهاد} تحرير البلاد ← الفئة الضحية {صالح وسكان القرية/ الشعب}

↑ ↙

الشعب ← الفئة الضحية [صالح] → المستعمر / الفئة المتواطئة

تبدو، في هذا الرسم، التناقضات الاجتماعية المتسمة بالقساوة عنصرا أساسيا في تشكيل افتقار manque الفاعل الجماعي [الفئة المجاهدة] وفي تهيئة ظروف تمرده على الوضع الاستعماري. غير أن الرغبة في تحرير البلاد وتحسين الوضع تصطدم بالفاعل الجماعي المتركب أساسا من فئتين متمايزتين ومتجانستين: الفئة المستعمرة والفئة العميلة. سيعمل هذا الفاعل على كل ما من شأنه أن يسد الطريق أمام المجاهدين ويفشل مسعاهم. ويقود الصراع، في النهاية، إلى تحقيق الفئة المجاهدة لموضوع رغبتها.

إن منطق النصر logique de la victoire، في الرسم العاملي، يدل على أن الفئة المجاهدة ستستفيد حتما من تضحياتها المثبتة في الملفوظات الآتية:

(...) "لدمائنا التي شربتها الوديان والليل وجليد الفصول الشتوية"[2]

(...) "التربة التي سحقتنا"[3].

(...) "قاتلت الجيوش الجرارة من أجل حمايتها"[4].

---

(1) نفسه، ص. 150

(2) الرواية، ص. 149

(3) نفسه، ص. 149

(4) نفسه، ص. 149

إن الفئة الخائنة التي عارضت طموحات الفئة المجاهدة في الزمن الصعب تسعى، للمرة الثانية وفي الزمن الثاني وبفعل تواطؤها مع السلطة الحاكمة، إلى إهانتها والاستيلاء على حقوقها التي ناضلت من أجلها. فتجد نفسها وجها لوجه أمام الفقر والجوع والبطالة.

ويؤدي هذا التحويل السردي إلى قلب مضامين Inversion des contenus[1] النص على النحو الآتي:

قبل	مضمون معكوس	جهاد	خيانة
بعد	مضمون مفترض	حرمان	استفادة

تتجسد هذه الوضعية المقلوبة Situation inversée في الملفوظات الآتية:

قبل{"في الزمن الصعب الذي مضى، كانت تبيع الله والأرض، وتنام ذليلة عند أقدام (الكولون).

بعد { وهاهي الآن (...) تستغل الظرف القاسي لتجيره لمصالحها"[2].

قبل{" البارح تذبحني وتذبح والديك

بعد{ واليوم تقيم مقدار قدرتي على التضحية"[3].

تقودنا المعاينة، عن كثب، للتحويل الأساسي في المضامين، إلى إجراء تعديل جوهري في الوضع الذي تحتله الفئة المشكلة للمرسل إليه في الرسم العاملي السابق:

---

(1) - A. J. Greimas , Du sens , Paris , 1970 , p. 187 .
- J. M. Adam , Le récit , P. U. F , Paris , 1991 , p. 7

(2) نفسه، ص. 149

(3) نفسه، ص. 149

{فقر/ اضطهاد} تحرير البلاد ← [بعد: الزمن الثاني]{ الفئة الخائنة/السبايبي و المسؤول}

↑ ↙

الشعب ← الفئة المجاهدة → [قبل: الزمن الثاني] المستعمر/الفئة الخائنة

فئة تجاهد وتحرم وفئة تخون وتنعم؛ إنها المعادلة الصعبة التي اخترقت منطق النصر في البرنامج التحريري الذي يعتبر صالح رمزا من رموز فاعليه.

تأسيسا على هذا الرسم، تنتقل الفئة الخائنة (السبايبي، المسؤول) من وضعية عاملية Position actantielle [مسحبة على الزمن الصعب]، تعارض فيها البرنامج التحريري/ يبيع الله والأرض/ و/الذبح/، إلى وضعية ثانية محققة في الزمن وينتج عنها فعلان أساسيان:

- يتمثل الفعل الأول في استغلال الظرف القاسي لتنمية ثرواتها والدفاع عن مصالحها المكتسبة في الزمن الأول.

- ويتماهى الفعل الثاني، الممهد للفعل الأول والمنتج له، مع توريط المسؤول بالرشوة وزجاجات "الويسكي" و "الباستيس":

"توفير "الويسكي" و "الباستيس" للمسؤولين".

"وسهرة صيفية في أحد "كبانوهات" المتوسط، كفيلة بجعله مستفيدا من حكايات إعادة الاعتبار للمجاهدين القدماء".

"فالحصول على وثيقة المجاهد في هذه البلدة لا تكلفه أكثر من سهرة وبعض زجاجات الويسكي"[1]

نلاحظ، في هذه الملفوظات، أن التواصل الذي يتم بين الفاعلين: الفئة المسؤولة (ف1) والفئة الخائنة (ف2) يشيد، في إطار البرنامج السردي المضاعف، على بنية التبادل Structure de l’échange[2]

(1) الرواية، ص. 148

(2) A. J. Greimas , Du sens , P. 42

"أعط تأخذ"[1].

تدخل الفئتان ف1 وف2 في علاقة بموضوعين:

م1 : وثيقة المجاهد.
م2 : سهرة صيفية، زجاجات الويسكي والباستيس.

تعبر الحالة الأولى عن:

أ – وصلة ف1 بـ م1 وفصلته عن م2 : م1 ∩ ف1 U م2

ب – وصلة ف2 بـ م2 وفصلته عن م1 : م2 ∩ ف2 U م1

إن كل فئة، في هذه الحالة المضمرة، تحدد لنفسها، على محور الرغبة، موضوع القيمة التي تريد امتلاكه انطلاقا من قدرتها، وبالمقابل، على أداء البرنامج السردي الذي يخوله لها دورها الموضوعاتي:

ف1 يملك النفوذ الإداري وف2 يملك النفوذ المادي. ومن ثم، تخضع عملية التبادل لأداء مزدوج تحول فيه الحالات على النحو الآتي:

الحالة الثانية { م1 U ف1∩ م2 / م2 U ف2 ∩ م1

من هذه المنطلقات، نلاحظ أن العلاقة تتغير في صلب البنية التركيبية بحيث يمكن لكل فاعل أن يمتلك القيم التي يرغب فيها سواء تعلق الأمر بالنسبة للفئة ذات النفوذ السياسي والتي لا تتجاوز دائرة اهتماماتها اللهو والعبث (سهرة صيفية، زجاجات الويسكي والباستيس)، أو الفئة الخائنة التي تسخر هذا النفوذ لقضاء مآربها (وثيقة المجاهد).

سيسهم هذا الوضع المبني على الرشوة في نقل سلطة القرار Pouvoir de décision من الفئة المجاهدة إلى الفئة الخائنة التي ستسعى من موقع قوتها إلى عزل الفئة التي عارضت طموحاتها في الزمن الأول ومقاومتها والانتقام منها

---

(1) الرواية، ص. 148

وتهميشها. حتى وإن تغيرت المواقع الاستراتيجية والوضعيات العاملية، فإن هذا الوضع الجديد سيعيد إنتاج صراع الزمن الأول:

"دنيا والله. أنت تقيم الناس؟؟؟ آه يا الميلود. (أش) من زمن هذا يا ولد السي لخضر. البارح تذبحني

أ ← وتذبح والديك واليوم تقيم مقدار قدرتي على التضحية من أجل هذه التربة التي سحقتنا "

(...) – " سمحوا لك بالتسجيل في قائمة عمال السد، لكن الثورة الزراعية قالوا ..."

... قالوا أن ماضيك يكتنفه الغموض. وقد وصلتني نسخة مصورة من ملفك القديم".

ب ← – "من وقت فرنسا "

– "آي نعم. ومكتوب عليها ... "
– "Elément dangereux. عنصر خطير ".
... والله يا بابا صالح هم اللي نزعوك من القائمة"[1].

يبدأ صالح، في الملفوظ أن بتنظيم قوله في مقولة المتكلم، ويتوجه بخطابه إلى /الأنت / المشحن بقيمة احتقارية. ثم يسمي الأنت، يحدد نسبه، يؤطر فعله في السياق التاريخي، ينتقد الوضع الذي أفرزه الزمن الثاني، ويبدي إندهاشه للمنصب الحساس الذي أسند إلى الميلود من خلال تقويمه لنشاطه وأدائه الفعال والإيجابي (ذبح) في البرنامج الاستعماري المناهض للبرنامج التحرري.

ويعبر هذا الاندهاش عن وضع في غاية التناقض: كيف يقوم الميلود مقدار قدرة صالح على التضحية وهو لا يملك ما يؤهله للتقويم! بعبارة أخرى، كيف يقوم

---

(1) الرواية، ص. 149

الميلود، المعروف بخيانته للثورة، المسار الثوري لصالح الذي أبدى وفاءه لهذه الثورة!!!

كنا قد أوضحنا ممارسة صالح الخطيرة في البرنامج التحرري الذي يثبت امتلاكه للكفاءة التي أهلته على القيام بالعمليات العسكرية؛ أي كان يملك الفعل الذي يهدد أمن ووجود المستعمر. فضلا عن هذا، فإنّ الميلود، من موقع انتمائه إلى البرنامج الاستعماري، يقوم تقويما إيجابيا الحالات المحوّلة في الأداء الأساسي لصالح:

وأعرف أنك كنت مجاهدا فاضلاً[(1)]

ويتطابق هذا الأداء مع العقد الّذي أبرمه صالح مع الفئة المجاهدة والمتمثل في تحرير البلاد.

إن هذا الاعتراف الّذي افتكه صالح من المسؤول قيد هذا الأخير تقييدا لم يملك فيه القدرة على تبرير قرار فصل صالح من قائمة عمال السد والمرتبط بدرجة إسهام المرشح في البرنامج التحرري.. فهو، في كل الحالات، متذبذب في موقفه من القرار [ب]: تارة يتهم النظام السياسي فيحمل الثورة الزراعيّة مسؤولية إقصائه، وطورا ضمير الغيبة / هم /.

ولئن كان الفاعل المعارض لموضوع رغبة صالح (منصب شغل)، لا يحيل على صورة اسميّة محددة، فإنّ تجلياته ثابتة في النّص من خلال ممارساته:

"يستنجدون بالملفات الّتي خلفها ديغول وبيجار والقتلة"[(2)]

تكرس الوصلة المحققة في / الاستنجاد / بين الضمير / هم / و / رموز الاستعمار / الفرنسي / [ديغول، بيجار والقتلة] استمراريّة الصراع du conflit continuité ومواصلة المشروع الاستعماري من خلال الملفات التي تضبط

(1) الرواية، ص. 149

(2) نفسه، ص. 150، 151، 153

النشاط العسكري [الخطير] للفئة المجاهدة. يندمج، على هذا الأساس، الضمير [هم] بسهولة في صورة الفئة الخائنة الّتي ساندت رموز الاستعمار في الزمن الأوّل، و، تسعى، في الزمن الثاني بفعل توريط السلطة بالرشوة واستيلائها على سلطة القرار، إلى الانتقام من الفئة الّتي حاربت هذه الرموز، وضرب النظام السياسي من الداخل وقمع طموحات الشعب. لقد اتسع مجال تحركها واشتدت سيطرتها على الوضع إلى درجة أصبحت تملك فيها القدرة على استعمار البلد من جديد:

"تحب بلادنا لكنها ليست لنا"[1]

تؤدي هذه الوضعيّة المضطربة الّتي وصل إليها السّرد إلى اغتراب صالح واختلال رؤيته إلى العالم.

ويترجم هذا التوتر على الصعيد الخطابي بالمسار الصوري المجسد لاهتزاز كيانه الناتج أصلا عن اكتشافه للحقيقة التّاريخيّة المرة وفقدانه الثّقة في النظام السياسي الّذي علق عليه آمال تحريه. ويمكن أن نؤطر هذا المسار في الحقل المعجمي الآتي:

أ{ " شعر بتوازنه يختل[2]".

ب{ "جحظت عيناه، مسحهما من دمعتين..."[3] تمتم بحزن"[4]. "ارتجف ساعداه"[5]

ج{ "لطم رأسه على الحائط بقوة"[6]

د{ "كانت الرجفة الّتي اكتسحت كل جسده وأعضائه"[7]

---

(1) الرواية، ص. 150، 151، 153

(2) نفسه، ص. 150

(3) نفسه، ص. 150

(4) نفسه، ص. 150

(5) نفسه، ص. 151

(6) نفسه، ص. 150

(7) نفسه، ص. 151

س{ "قلبه يدق دقات غير منتظمة"[1]

ك{ "تقيأ في القاعة"[2]

يقدم هذا الحقل جردا عاما لمجموعة من الصور تشكل مسارا يؤدى في كليته إلى تيم واحد يعبر عن حزن صالح وقلقه ويأسه في الحصول على حقه. يبدأ هذا المسار بوضع مضطرب [أ] يترجم حالة الافتقار الّتي تولدت بعد اكتشافه حقيقة الوضع في الزمن الثاني وتبليغه خبر فصله من قائمة عمال السد. ويبدأ الاختلال يقوى ويتصاعد لتظهر أعراضه في العين [/جحوظ /، /دمع /] ثم في الصوت [/تمتم بحزن/] ثم في الأعضاء [/ ارتجف ساعداه /] [ب]؛توتر ينجم عنه سلوك تدميري، انتحاري يقود إلى منطقة الموت [ج]. ويتواصل التصاعد بـِ /الرجفة / و/ دقات القلب غير المنتظمة / [س] ليؤدي في النهاية إلى لفظ هذا العالم [ك] والهروب منه.

"وهو يجري ويتلوى كطفل لذعته أفعى"[3].

يعكس هروبه رغبته في الانتقال إلى "الهناك" [عالم البراءة]، في سبيل خلق توازن جديد:

"نحو بيته والإسطبل ولزرق وعيون لونجا"[4].

إن هذه النتائج التي توصلنا إليها من خلال معاينة الإطار السردي الذي تولد مباشرة بعد إعلان صالح عن رغبته في الانتقال إلى منطقة الحياة [المقطوعة هـ وبداية المقطوعة وي] كفيلة بإعطاء تفسيرات، من جهة، حول خطورة كلام

---

(1) نفسه، ص. 153

(2) نفسه، ص. 153

(3) نفسه، ص. 154

(4) الرواية، ص. 154

النّاس[1] وقدرته على تدمير كفاءة صالح وتحويلها عن مجرى التحري المشروع، ومن جهة ثانية، حول الجهات المحددة في سياق الصراع والتي أسهمت في صنع الوضع السردي الذي آل إليه صالح في بداية المقطوعة وي.

وتظهر انعكاسات كلام النّاس بشكل واضح في المقطوعتين الآتيتين:

المقطوعة هـ و أ{ "...كلام النّاس يعيدني مجبرا إلى مهنة التعاسة"[2].

ب{ "لم أكن أنوي العودة إلى هذا المرض القاتل"[3].

المقطوعة وي ج{"هم الذين دفعوني إلى هذه النهاية الملعونة"[4]. }

يحتل **كلام النّاس** في [أ] وضعية عامليّة خصوصية تفرز نشاطا يمارس على صعدين:

- إن كلام النّاس بوصفه فاعلا معارضا يحول بين صالح ورغبته في العمل.

- فهو بمثابة القوة المحدثة لوجوب الفعل: يجب أن يمارس مهنة التهريب مادامت رغبته الأصلية في الحصول على العمل لم تتحقق.

ويمكن أن نلمس في مستوى آخر افتقاده المطلق إلى الحرية في الاختيار وفي تقرير مصيره على النحو الذي يرغبه؛ يتأكد ذلك بالثقل الدلالي charge sémantique المشحن في صور /التعاسة/[أ]، /القاتل/[ب]، /الملعونة/[ج] الذي يلغي الفعل الإرادي ويخلعه عن الممارسة الاختيارية [أ،ج]. نسجل في **المقطوعة وي** تحولا يعكسه التنقل من "نشاط الناس الكلامي"[أ] إلى "الناس" بوصفهم فئة خائنة

---

(1) ثبتنا في سياق التحايل أن معنى /الناس/ في النص يخرج من عموميته ليحيل على فئة خائنة يعد الميلود رمزا من رموزها.

(2) لرواية، ص. 182

(3) الرواية، ص. 182

(4) الرواية، ص. 201

يعبر عنها ضمير الغيبة هم المدرك في الخطاب "كانتماء". إن استفظاعه لهول ما لحق به قاده إلى تغييبها من مجاله اللغوي بهدف إقصائها من حياته. وممّا يعمق هذا البعد الخفي لضمير الغيبة ورود الفعل في صيغة الماضي [ج: "دفعوني"]، فالماضوية فيه تومئ من طرف خفي إلى أن هذه الفئة لم تعد تمثل بالنسبة له إلاّ جزءا من الماضي الّذي فات وترك جروحا لا تضمد وبصمات لا تمحى. لقد وصل توتره إلى درجة لا يستطيع فيها البقاء في البلدة. إنّ إحساسه بالمهانة والخيانة قاده في هذه المقطوعة إلى الاختفاء والضياع. ومع نهاية المقطوعة **وي**، وفي أثناء عودته من عالم الغربة واتصاله بلونجا، تبدأ كفاءته في مشروع التحري عن العمل تتشكل من جديد وبشكل تدريجي، بعدما عرفت تراجعا وانحسارا، مرفوقة، وعلى نحو متواز، بمشروع زواجه من لونجا. فيتغير مجرى الخطاب بحضورها القوي والمتنامي في خلق توازن جديد. إن هذا اللقاء، على بساطته، يحفل بإيحاءات عميقة من أبرزها أن العلاقة الّتي يحلم بها صالح ويتمنى أن ترد بين الطرفين هي علاقة الاحتواء والاحتضان أي علاقة التعايش والانسجام. إذا كان صالح قد خرج منهزما مادياّ، فإنه، في الواقع، حقق انتصارا معنويا يتسم بمشروعية أطروحته وثبات رؤيته إلى العالم. ويعد انهزامه الآن انتصارا مؤجلا للخير.

تعد مشروعية أطروحة صالح قاعدة أساسية شيد عليها عالم رواية نوار اللوز الذي يتميز بحضور صالح القوي والمكثف في النص وقدرته على اختراق فضاءات دلالية متعددة؛ إنه حاضر في

كل النقاط الاستراتيجية. يحاور الجمارك، يدخل في صراع معهم ومع الميلود، وفي سلم مع موح الكتاتبي وآخرين، وفي حب مع المسيرديّة ولونجا، ويسلم نفسه، في الأخير، للدركيين.

هذه الشخصيات التي التقت به أو نقلها عبر ذاكرته ما كان لها أن توجد لولا غنى بطاقته الدلالية وتنوع برامجه السردية. إن مسألة التأثير الدلالي لهذه الشخصيات التي تستمد وجودها من حضوره، ستقودنا إلى البحث عن الطرق

الكفيلة بتحديدها منهجيا، وتصنيفها، والتعرف على أدوارها الموضوعاتية thématique، والوقوف عند الرغبات التي تقف وراء تحركاتها وتناميها على امتداد المساحة النصية، والكشف عن العلاقات الداخلية القائمة بينها. وسيكون هذا الفحص موضوع الفصل اللاحق.

4. شخصيات الرواية / تصنيفها وتأطير مكوناتها الشكلية والدلالية

4-0 مقدمة منهجية

من بين المشاكل التي اعترضت سبيل الباحثين في محاولتهم الحثيثة لتحديد مفهوم الشخصية في النص السردي تلك المتعلقة بمكوناتها ومستويات تحليلها:

- النحوي أولا، فالشخصيات تنتشر على امتداد النص لتحتل موقعها من خلال الأفعال التي تسند لها.

- السردي ثانيا، لأن الشخصية بوصفها وحدة سردية تسهم في القصة المروية. histoire narrée

- الأدبي أخيرا، يعتمد هذا المستوى اعتمادا كليا على ما يقيمه النص من علاقة بالعالم الخارجي وذلك انطلاقا من الاعتقاد السائد بالعلاقة الوثيقة الموجودة بين النص والشخصيات الحقيقية.

تبين هذه الوقفة السريعة عند حدود الإشكالية التي يطرحها تحديد الشخصية أن مسألة حصر مفهومها في حد ذاته تبقى غامضة. وهذا ما أشار إليه فيليب آمون في دراسته للنظام السيميولوجي للشخصية عندما أكد أن رواج التحليل السيكولوجي أسهم في تعقيد المسألة وإثارة اللبس في التمييز بين الشخص personne والشخصية personnage[1].

---

(1) Philippe Hamon, Pour un statut sémiologique du personnage, in Poétique du récit, Seuil, coll. Points, Paris,1977, p. 122 .

من هذه المنطلقات، ورغبة منا في استجلاء هذه المسألة والاستفادة من الإجابات المصوغة في هذا الشأن، سنتبنى في تحليلنا لشخصيات رواية **نوار اللوز** القاعدة النظرية المنضوية تحت مفهوم الممثلين المجسدين في تلاقي نوعين من الأدوار العاملية والموضوعاتية والمكلفين: "(...) بمهمة مزدوجة؛ إنهم، من جهة، يدعمون البنية السردية في اضطلاعهم بالوظائف الأساسية وفقا للمقطوعات وتبعا لمجال الحكاية، ويتحملون من جهة أخرى العناصر الدلالية"[1]. ومن ثم، فإن "المضمون الدلالي الأدنى للدور يعتبر (...) مماثلا لمضمون الممثل. نستثني من ذلك سيم التفرد الذي يفتقد إليه. ولئن كان الدور كيانا صوريا حساسا، فإنه مجهول واجتماعي؛ وفي مقابل ذلك، يؤدي الممثل (...) دورا أو أدوارا عديدة"[2].

وعلى هذا الأساس، تتميّز الشخصية، بوصفها ممثلا، بالسمات الآتية:

- كيان صوري entité figurative.
- حساس animé.
- التفرد individuation. نلحظ هذه السمة في اسم العلم الذي يحمله الممثل[3].

استنادا إلى هذه التوضيحات، سنقدم تصنيفا لشخصيات الرواية. يعقبه تحليل مستوياتها، والنظر في تجلياتها الدلالية. سيمكننا المرور الاضطراري بالدليل اللساني على إقرار مفهوم المرجع بوصفه مقياسا أولا للتصنيف.

4-1 الشخصية المرجعية:

إن المرجعية هي "الوظيفة التي يحيل بها الدليل اللساني على موضوع العالم غير اللساني، سواء كان واقعيا أم خياليا"[4].

---

(1) J. Courtés, Introduction à la sémiotique narrative et discursive, p. 95

(2) A. J. Greimas , Du sens , p. 256 .

(3) A. J. Greimas , op,pp. 255-256 .

(4) Dictonnaire de la linguistique , Larousse , Paris , 1973 , p. 414 .

على هذا الأساس، تحيل الشخصية المرجعية *personnage référentiel* على الواقع غير النصي extra – textuel الذي يفرزه السياق الاجتماعي [صورة المهرج في المجتمع الجزائري] أو التاريخي [نابليون، أولاد لاليجو]. ويرتبط وضوح هذه الشخصية المتميزة بالمعنى المليء والمثبت ثقافيا بدرجة إسهام القارئ في الثقافة الاجتماعية والتاريخية التي ينتسب إليها النص الروائي. تتفرع الشخصية المرجعية في نص الرواية إلى فئتين متمايزتين؛ فئة مستوحاة من التاريخ الجزائري بشكل مباشر نطلق عليها مصطلح **الشخصية التاريخية** historique personnage، وفئة تحيل على شخصيات أدبية أجنبية عن النص الروائي تنضوي تحت مصطلح الشخصية التناصية personnage intertextuel التي تؤدي وظيفة تناصية تتجسد في مختلف مستويات بنية النص.

يمكن أن نحصر الفئة الأولى في نابليون وأولاد لاليجو. يحقق حضور الشخصية التاريخية الأولى، المتجلية على الصعيد الإيقوني [صورة نابليون المعلقة]، في النص التجذير الخيالي في الواقع. وعليه، فإن هذه الشخصية تجسد الوصلة التاريخية بين حاضر الجزائر وماضيها، والسيادة الفرنسية في الجزائر، وحنين أولاد لاليجو [الشخصية التاريخية] إلى الممارسة الاستعمارية.

استنادا إلى منظور صالح، نلاحظ أن حضور صورة نابليون في إطار رسمي [البلدية] يترجم استفزاز أولاد لاليجو بالمجاهدين، وتنكرهم لتضحياتهم وقيمهم الثورية. إذا كانت حرية الإنسان هي جوهر وجوده والقيمة الأساسية لحياته، فإن الصورة هي استلاب لهذه الحرية وبالتالي فهي استلاب للوجود وإهدار للحياة والشباب:

"وصورة نابوليون المنقوشة على الحائط. شعر بها تستفزه في حياته وشبابه"[1].

---

(1) الرواية، ص. 153

من هنا، تتخذ شخصية نابوليون مدلولها الحقيقي لتتحول إلى كابوس مرعب يؤكد الفصلة التاريخية لحاضر الجزائر عن ماضيها.

أما الفئة الثانية، فإنها تقتصر على الشخصيات التناصية الموظفة في نص الرواية والمتفاعلة على مستويات عدة من خلال أدوارها الموضوعاتية المتميزة التي تحيل على عالم دلالي مشترك [التهريب] بين تغريبه بني هلال وتغريبه صالح:

❶ { "لكن يا صالح أحد أتعس سلالة بني هلال التي [قادها الجوع] إلى [التهريب][1]"

⇩ ⇩

ب ت

تأتي الشخصية التناصية [بنو هلال] المتولدة من روابط القرابة لتؤكد تماثل التجربتين على الصعيد التاريخي:

بنو هلال: الجوع ← التهريب

صالح: الجوع ← التهريب

إنه تماثل يدل دلالة قاطعة على أن صالح وجد نفسه في تجربة بني هلال:

❷ {["سنضطر تحت ضغط الجوع] (...) أن [نهاجر إلى الحدود البعيدة"][2].

⇩ ⇩

ج د

استنادا إلى الملفوظين ❶، ❷ نحصل على المعادلة الآتية التي تؤكد تماثل التجربتين:

ب = ج

ت = د

---

(1) الرواية، ص. 8.

(2) نفسه، ص. 26

تشتغل ب وت كسناد support تنهض عليه المكونات الأساسية لتجربة صالح:

1. صالح يعاني من الافتقار
2. يتذكر تجربة بني هلال
3. يأخذ العبرة من هذه التجربة ويمارس مهنة التهريب.

إن هذه الشخصيات التناصية لا ترد في كلام صالح إلا من خلال ما يعرفه عن أفعالها، ولا يتحدد وجودها سوى بنشاطه التأويلي الممارس على تجربتها:

"...أنا متأكدة أنهم كبار.

وراءهم من يحميهم. يجنون أرباحا مفزعة مثل تلك التي كان يجنيها أبو زيد الهلالي. أنت طيبة يا الجازية، لكن أهلك الكبار، دياب الزغبي، والأمير حسن بن سرحان، كانوا يقامرون بعيون أطفالنا وبالنفط وبأعناق الفقراء"[(1)].

في هذا الملفوظ، يسحب صالح نشاطه التأويلي activité interprétative للوضعية الراهنة- المتميزة بتواطؤ السلطة [وراءهم من يحميهم] مع السماسرة والتجار ضد الفقراء - على رموز بني هلال [أبو زيد الهلالي، دياب الزغبي، الأميرحسن بن سرحان] الذين خلفوا ميراثا اقتصاديا وسياسيا فاسدا يزيد في عمق الهوة الفاصلة بين الأغنياء والفقراء. إن الشخصيات التناصية والسماسرة والتجار؛ يذوبون كلهم في صورة / الكبار/ (&،&'): إنهم الممتلكون الفعليون للسلطة بفعل امتلاكهم لــ "المال" [يجنون أرباحا مفزعة]. يهدف تمرد صالح عليهم ورفضه لميراثهم المبني على رفض الواقع العملي الراهن إلى فضح ممارساتهم ومكامن السقوط في نظامهم وإجحافهم لحقوق الفقراء:

"سيأتي يوم ونكشف أوراقهم"[(2)].

---

(1) الرواية،ص. 18

(2) نفسه، ص. 152

إن هذه الشخصيات التناصية تتفاعل بشكل واضح مع الشخصيات المعارضة لمشروع صالح؛ ولعلنا لا نبتعد عن الصواب إذا قلنا إنها تنسجم انسجاما كليا إلى حد التماهي مع برامجها وجهازها القمعي الذي أحالت عليه صورة /السيف/ مرات عديدة في النص:

"لا يفهمون إلا لغة السيف وذبح الرقاب[(1)]".
"ماذا بقي لك من أبي زيد الهلالي غير إرث السيف"[(2)].
"لوح بمعارفه في العاصمة وبسيفه"[(3)]

تدل الصور التي رافقت ظهور /السيف/ على العنف والنفوذ والسلطة. إن هذه العناصر التي تشكل لغة الحاكم في تعامله مع الفئة الفقيرة موروثة، ومتجذرة في التاريخ؛ تتسع دلالتها بحضور /السيف/المكثف في النص (ورد ذكره 28 مرة) وتنوع أسمائه في الموروث اللغوي العربي (تنيف أسماؤها على ألف)[(4)]. وقد ورد ذكره أيضا في قصة "الملكة خرما" من السيرة الهلالية [16 مرة][(5)].

وتشير هذه العملية الإحصائية إلى أن /السيف/ بوصفه شخصية تناصية مركزية يشكل نقطة تلاق وتواصل الماضي مع الحاضر؛ فالسبايبي في الملفوظ الأخير لا يعدو أن يكون وريثا شرعيا [لأبي زيد ودياب الزغبي، والأمير حسن بن سرحان] يجسد الماضي بكل إفرازاته السلبية.

خلافا لهذه الشخصيات التناصية، تمثل الجازية في طيبوتها [أنـــت طيبـــة يـــا الجازية] المستقبل البديل الذي يبحث عنه صالح ليحققه في ظل طموحاته.

---

(1) نفسه، ص. 191
(2) نفسه، ص. 9
(3) نفسه، ص. 11
(4) الفيروز آبادي، القموس المحيط، الجزء الثالث، دار الجيل، بيروت.
(5) سيرة بني هلال، تقديم ليلى قريش، دار موفم للنشر، الجزء الأول، الجزائر، 1988، ص. 103.

إن الحديث عن الشخصية المرجعية الموظفة من الخارج على النص يقودنا حتما إلى تسليط الضوء على الشخصية المرجعية التي توظف من داخل النص وتحيل مباشرة على ماضي الراوي وتجاربه معها.

2- 4 الشخصية المرجعية الذاتية:

من الواضح أن هذا "الكائن الورقي" لا يتحقق وجوده إلا من خلال ذكريات الراوي أو ما يسند له من دور أو برنامج سردي في متن القصة(1)، فهي لا تشتغل سوى بالمرجعية الذاتية، ولا تحيل في تناميها إلا على نفسها:

"شخصية الرواية تولد فقط من وحدات المعنى، ولا تتشكل سوى من الجمل التي تلفظها أو تلفظ لحسابها(2).

ويتم بناء هذا الدليل المنتشر على مساحة القصة بالتدريج إلى أن تكتمل ورته مع نهاية الرواية. وتدخل في هذه الفئة أغلب شخصيات القصة.

إذا استندنا إلى مقياس الزمن السردي، يمكن أن نقوم بتصنيف للشخصيات ميز فيه بين الشخصيات" الخارجة عن القصة" [الغائبة] extradiégétique الشخصيات الداخلية في القصة [الحاضرة](3) intradiégétique.

4-3 الشخصيات الغائبة:

تأسيسا على التوضيحات التي قدمها جيرار جينيت بخصوص الزمن السردي، تشتغل هذه الشخصيات الخارجة عن إطار الزمن الحاضر للقصة بالسابقة

---

(1) نميز في تحليلنا بين القصة histoire و الحكايةrécit . القصة هي مدلولsignifié أو مضمون النص السردي. وتعتبر الحكاية دالاsignifiant للنص السردي أنظر:

- G.Genette , **Figures III** , Seuil , Paris , 1971, p.218.

(2) R. Wellek , A. Warren , La théorie littéraire , Poétique, Seuil , Paris , 1971 , p. 218 .

(3) diégétique مشتق أصلا من diégèse بمعنى القصة histoire. أنظر المرجع السابق، ص. 72.

analepse، وتتميز بحضورها القليل وبغياب برنامجها السردي؛ نذكر على سبيل المثال المسيردية لخضر والإمام:

أ } "وسط متاعب الوحدة، صدقيني يا المسيردية أني حين أجوع أتـذكرك بعمـق حنان..."[1].

ب } "هه البارح فقط قتلوه. السي لخضر (...) وجدوه عند حائط عتيق، تنام داخل رأسه ثلاث عيارات نارية (...). لم يكن مهربا ماهرا قـادرا علـى ممارسـة قذارات اللعبة[2]".

ج } "وجه الإمام مخيف. كل يوم أراه في المنام، بشعا ومخيفا. إنه مرعب يا بابـا صالح. لم أكن أريد الزواج منه"[3].

في الملفوظ (أ)، يتحقق وجود المسيردية الغائبة في مناجاة صالح ويتقـدم لجوؤه إليها تخفيفا لمعاناته.

ينقل صالح، في الملفوظ (ب)، خبر قتل العربي. إن هذه الشخصية الميتـة الغائبة، تؤكد حضورها النهاية المأسوية للمهرب وخطورة مهنة التهريب.

تتحول لونجا، في الملفوظ (ج)، إلى راوية Narratrice، تسرد ما جـرى لها مع الإمام. و تدل الأخبار التي نقلتها على هيمنة التقاليد في مجتمـع **محـافظ ومعيق** لتحرر المرأة.

وتملك هذه الشخصيات، الغائبة عن إطار الزمن الحاضـر للقـصة، وظيفـة مزدوجة:

- فهي تمثل بالنسبة للشخصيات الحاضرة ماضيها وتكمل معالمهـا وتفـسر وضعيتها الراهنة.

---

(1) الرواية،ص. 16

(2) نفسه، ص. 18/17

(3) نفسه، ص. 206

- تضمن للقصة التواصل بين الماضي والحاضر، وتلعب في النهاية دور المخبر[1] informant. إن البعد الزمني يشكل المرتكزات التاريخية للقصة ويدعم مفعول الواقع فيها.

4-4 الشخصيات الحاضرة:

تتموضع هذه الشخصيات زمنيا في حاضر القصة وتختلف وظائفها من شخصية إلى أخرى.

وقد قادتنا قراءتنا لرواية **نوار اللوز** إلى التمييز بين حالات متعددة نقتصر على ذكر بعض سماتها الآتية:

- الحضور القليل [يسفر عن علاقتها المحدودة بالشخصيات الأخرى].

- تتسم بالغموض في أغلب الأحيان [ذلك أنها تبقى مجهولة لدى القارئ].

- إن أوصافها قليلة جدا لا تمكن القارئ من أخذ صورة واضحة عنها [فالراوي لا يعطي سوى أخبار قليلة ومتفرقة سواء تعلق الأمر بكينونتها أو أفعالها].

- لا تملك برنامجا سرديا على غرار الشخصيات الأخرى، ولا تملك من القوة ما يؤهلها على تغيير مجرى الأحداث. نذكر من هذه الشخصيات القوال الذي تكمن أهميته، فضلا عن كونه يبرز مظاهر الحياة الدينية عند العرب من خلال سرده لأخبارها القديمة وغزواتها وبطولاتها، في العلاقة الأساسية التي تربطه بالمهربين. إنه يتقصى أخبارهم ويذيعها في الناس ["يا السامعين. وقلوبكم كبيرة. عبد الله ولد يامنة قتلته الديوانه[2]"، ويتألم لنهايتهم المأسوية ["يمسح دموعا تتدحرج على

---

(1) R. Barthes , **Analyse structurale des récits** , in Communications 8 , p. 11 .

(2) الرواية،ص. 46

خده"[1]] ويراقب حركات الجمارك ويعلن عنها في الحلقة ["الديوانه مشاوا. أخرجي يا الفيران مالغيران. أخرجي"[2]].

ويظهر هذا الدور الذي يضطلع به الحكواتي مدى تعلقه بحياة القرويين والتحامه بهم، وذلك بخلاف السيد علي التوناني الذي يحمل بروزه المفاجئ أكثر من دلالة. يجسد هذا المؤرخ الصورة الحقيقية للمثقف الذي يعيش في عزلة عن حياة الفقراء:

"يتعاطف مع من كان السيف لغتهم الوحيدة في الكلام[3]".

...وفقراء الهلاليين الذين لم يردوا في تاريخ سيدي علي التوناني[4].

إنها صورة المثقفة التقليدي المعزول عن الشعب وتطلعاته والحليف الموضوعي للبورجوازية والسلطة.

- أما الشخصيات الأخرى، التي ستكون موضوع دراستنا في الفصل اللاحق، فإنها تتميز باسم وصفات وبرنامج سردي. تكمن أهميتها في ديناميتها. ويمكن أن تتأرجح هذه من الإشارة البسيطة إلى التواتر الكثير في الحضور.

4-5 نظام التسمية في الرواية:

لا يمكن أن تشكل الشخصية في النص الروائي"معطى جاهزا"؛ فهي:

"ليست في البداية سوى سناد [يحيل عليه في الغالب اسم "علم" مفتقد إلى مضمون دلالي واضح] فارغ، يسند له الكاتب تدريجيا وعلى امتداد الرواية بعض الوظائف [أو الأفعال] و/ أو تأهيلات يأخذ البطل من خلالها شكلا ويتحدد[5]".

---

(1) نفسه، ص. 46

(2) نفسه، ص. 201/52/45

(3) نفسه، ص. 45

(4) نفسه، ص. 52-201

(5) J. Courtés, Introduction à la sémiotique narrative et discursive, p. 62

وإذا كانت الشخصيات في الرواية تنزع هذا المنزع في اقترانها باسم علم، فإنها، في الأعم الأغلب، تظل مقرونة باسم موضوع surnom (صالح بن عامر الزوفري). ويشكل هذا المنحى في نظام التسمية système de nomination ظاهرة فريدة من نوعها في الرواية الجزائرية من حيث هيمنته، وغناه الدلالي، وتثبيته لدور الشخصية الموضوعاتي المؤثر في سلوكاتها وأفعالها.

إن أهمية هذا المنحى تقودنا إلى فحص المكون الدلالي لاسم الشخصية والنظر في خصائصه.

وإذا كان الاسم الموضوع من صنع فعل جماعي، فإننا سننظر إليه من المنظور الاجتماعي، ونعتبره دليلا اجتماعيا بامتياز وذلك لتقيد الروائي، عموما، بالشفرة الاجتماعية وارتكازه على قواعد التسمية في المجتمع.

ولئن كان الاسم يشكل ظاهرة اجتماعية، فإنه سمة من سمات التفرد individuation[1] تسهم في إسقاط قناع الشخصية وبلورة تجلياتها الدلالية. ولهذا، لا نستغرب إذا اقترن الاسم بدلالة: "إن الاسم بوصفه"هيئة متكلمة"، يعلن عن حامله بالمكانة التي يخصصها له والصفات التي يسندها له"[2]. غير أن هذه العملية تتماهى مع النظام العام للتسمية الذي يستمد منه الاسم، باعتباره دليلا للفردية، قيمته الدلالية.

إن الأسماء المختلفة التي تحملها الشخصيات تسفر عن سمة التمايز وتتم وفق إجراءات متنوعة. لا بد أن نشير، في هذا المقام، إلى أننا لا نأخذ بعين الاعتبار، في تصنيفها، سوى التسميات المتواترة في الرواية:

---

(1) O.Ducrot, T.Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Seuil, Paris, 1972, p.291.
(2) C.Grivel, Production de l'intérêt romanesque, Mouton, Paris, 1973, p.129.

الجدول :1

التسميات / الفئات	**اللقب**	**الأسم**	**الأسم الموضوع**	**الأسم العام**
الفئة الغنية	ولد القايد البختاوي ولد السي لخضر	الميلود	السبايبي	السماسرة والتجار / أولاد لاليجو / بني كلبون / الرجال القديرون / أولاد الكلبة / ابن القحبة
الفئة الوسيطة		موح	النمس وحش الخلاء الكتاتبي الديوانه	
الفئة الفقيرة	ابن عامر ←	صالح ← عمر ← احميد ← عبدالله ←	الزوفري بوحلاقي القهواجي السكايري المسيردية	

يساعدنا هذاالجدول، من الناحية المنهجية، على تحديد مقاييس توزيع مختلف الشخصيات في النص الروائي، وضبط القنوات التي يمر عبرها تشكيل المكون الاسمي.

نلاحظ في البداية أن الشخصيات تتوزع تبعا لانتمائها الطبقي [فئة غنية، فئة وسيطة، فئة فقيرة]. وفي صلب هذا الانتماء، يتصدر المكون الاسمي مكانة تخضع لمعايير النسب والمهنة، المركز الاجتماعي والانتماء الجغرافي.

تأسيسا على الاستنتاجات السابقة، يعبر عن الفئة الأولى [الفئة الغنية] وطموحاتها السبايبي ولد القايد البختاوي[1] الذي يعد طرفا فاعلا في نظام المافية السياسية والمالية باعتباره حلقة أساسية مشدودة من جهة بالسلطة ومن جهة أخرى بجهاز التهريب.

إن اسم السبايبي (الموضوع) مستوحى من اللهجة الجزائرية ويطلق عادة على المضارب في التجارة الذي يؤدي دورا بارزا في السوق السوداء. وقد اقترن هذا الاسم في النص بالدور الموضوعاتي المتعلق بمجوع الفقراء:

"كل يا السبايبي أرزاق الفقراء[2]".

ويعد البرنامج السردي الذي تندرج ضمنه أفعاله امتدادا وتوسعا لهذا الدور. يكفي أن نضبط الأفعال والصور التي جاءت ملحقة بهذا البرنامج لنتأكد من رغبته الحادة في استغلال وإذلال الفقراء ووضعهم تحت أقدامه:

❶ "سيطمح في تركيع القرية بكاملها مثلما كان يفعل أبوه[3]".

❷ "يتصور العالم كله تحت خاتمه الذي يكفي أن يدوره حتى يتجارى الناس حفاة عراة يطلبون مغفرته ومحبته"[4].

❸ "يداه طويلتان[5]"

❹ "معارفه بالعاصمة بعدد النجوم[6]"

---

(1) النسب العائلي دال Significatif لأنه يحيل مباشرة على تعامل عائلته مع المستعمر قبل استقلال الجزائر.

(2) الرواية، ص. 24-39

(3) نفسه، ص. 24-39

(4) نفسه، ص. 40

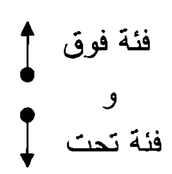
(5) نفسه، ص. 40

(6) نفسه، ص. 40

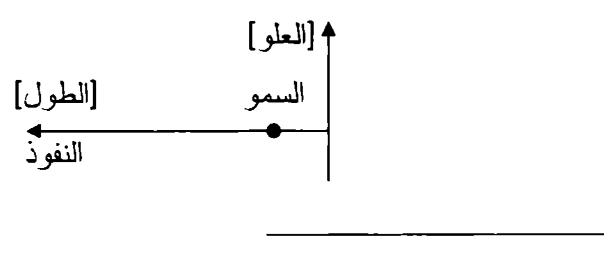
❺ "يخال العالم بأسره تحت أقدامه. وتظهر له الخلائق التي تبحث عن قوتها اليومي، تتجارى نحوه من أجل تقبيل حدوتي حصانه الأشم المخيف[1]".

تعبر، في الملفوظ❶، القرينة /س/ في "سيطمح" عن ثقة الفاعل [السبايبي] في نفسه وتصميمه على تنفيذ برنامجه المسخر لبسط نفوذه وفرض إرادته على كل الفقراء. وتأتي هذه الإرادة امتدادا لقدرته المستمدة من السلطة السياسية [الملفوظ 4]. إن هذا الوضع السردي المتميز محصلة طبيعية لعلاقة والده بالمستعمر المجسدة في دور القايد الذي كان يستمد قدرته من السلطة الاستعمارية. ومن ثم، فإن القدرة والإرادة في هذا المقام مرهونتان في وجودهما بنسب السبايبي الذي يعتبر الوريث الشرعي للفئة الخائنة التي مازالت تمارس حضورها حتى الآن وعلى جميع الأصعدة، وتلحق أضرارا جسيمة تجاه الفئة الفقيرة.

إن طموح السبايبي في تركيع القرية يمتد لتتوسع دلالته تدريجيا وبنائيا في الملفوظ ❷ وعبر /العالم كله تحت/. وتتجسد القرينة الدلالية في الثنائية الضدية: فوق عكس تحت على الصعيد العمودي لتعكس الطابع التقابلي والخلافي بين فئتين متناحرتين:



يدل الفوق على /العلو/ و/الرفعة/ و/السمو/، وتحيل تحت على /الخضوع/ و/الركوع/ لمن يملك المال والسلطة. ويتقاطع تكريس هذا الوضع على الصعيد الأفقي [الملفوظ❸] في قيمة /الطول/ [يداه طويلتان]:



(1) نفسه، ص. 40

تقاطعا يعكس نفوذ السبايبي الذي يتجلى بشكل واضح في الملفـوظ❹ وذلـك عبر /المعارف/ [الصعيد العمودي]، و/العاصمة/ [بوصفها فضاء مركز القـرار]، و/عدد النجوم/؛ **إن سموه في نفوذه.**

من الواضح أن تجليات هذه القيم ستتصدر برنامج السبايبي الخاص بمعارضته لقرار المرحلة الثالثة من الثورة الزراعية، القاضي بتأميم الأراضي[1]، رغبة منـه في المحافظة على أملاكه على نحو ما يظهر ذلك في الرسم العاملي الآتي:

-تنمية ثرواته/ عداؤه للنظام

السياسي والفئة الفقيرة   الأرض   ← -السبايبي والفئة الإقطاعية

↑   ↙

- النظام السياسي   ← السبايبي   →   - أجهزة في النظام السياسي

- الفئة الفقيرة   - موح الكتاتبي

- رئيس البلدية بودخلة

في هذا الرسم، يرمي السبايبي بكل قواه إلى لعب أوراقه الأخيرة قبل أن يمسه القرار وذلك "بدفع" رئيس البلدية إلى التنازل عن تأميمها. إذا استندنا إلى منظور السبايبي في النص، نلاحظ أن تحريكه [فعل الفعل faire-faire: "لدفعه إلى التنازل (...) وإغماض عينيه[2]"] لبودخلة جاء من منطلقات برنامج سردي سابق احتل فيه السبايبي موقع فاعل منفذ في حملة انتخابية مكن فيها بودخلة من الوصول إلى منصب رئيس البلدية. بتعبير آخر، هو الذي وضعه، وعليه، بالمقابل، أن يعرض عن تأميم أراضيه.

ولئن كان بودخلة قد وضع في ظروف انتخابية تتسم "بالفوضى" و "الفئوية" وتلغي"الإرادة الشعبية"، فإنه أصبح منسجما مع طموحات الفئة الفقيرة برفضه

---

(1) الرواية، ص. 40

(2) الرواية، ص. 40

الدخول في لعبة التحريك والتحول إلى أداة مسخرة لمصالح السبايبي والسماسرة والتجار والرجال القديرين (الجدول 1). خرج من منطق "اللغة الوحيدة"؛ لغة السبايبي وبعض أجهزة النظام وقرر الدخول في منطق لغة الشعب التي يعبر عنها قرار النظام السياسي. ويبدو تصرفه متحررا من كل قيد فئوي ومن كل رابط. هكذا يواجه رئيس البلدية مسؤوليته وحيدا:

"هددهم بإخراج ملف سرقه إسمنت المدارس وبناء" الفيلات "..."[1].

فهو برفضه وتهديده لهم، يدين تدنيس القيم وإخضاعها لخدمة فئة من الناس على حساب الأغلبية. الجميع ضده وهو واحد في مواجهتهم، وجد نفسه "مطوقا" من جميع الجهات، وبالتالي كان الصراع بينهم وبينه حتميا:

"حاربوه حتى الموت... "[2].

فإذا قبل الموت واغتيل في حركة تمرده ["مطعونا عشر طعنات قاتلة"[3]، "... سخر أياد مجهولة لطعنه"[4]]، فإنه بذلك يدلل على أنه يضحي بذاته في سبيل خير يعتبر أنه يتجاوز مصيره الخاص. فالمواجهة إذن هي بين عامة الشعب "ممثلين" في رئيس البلدية وبين "أولاد لاليجو" [الجدول:1] ممثلين خاصة في السبايبي الذي يعتبر سلطة داخل السلطة؛ حتى أنه قد جعل منها طريقا للوصول إلى بودلخة وتصفيته جسديا. إن موح الكتاتبي الذي ساند صالح في صراعه مع الميلود يجد نفسه "بصمته" ["لو فقط ينطق"[5]] متواطئا مع السبايبي الذي يكون قد أزاح عن طريقه جميع المعيقات لتحقيق موضوع رغبته [الرسم العاملي].

---

(1) نفسه، ص. 11
(2) نفسه، ص. 11
(3) نفسه، ص. 11
(4) نفسه، ص. 40
(5) نفسه، ص. 40

وتأتي أسماء السماسرة والتجار وأولاد لاليجو، وبني كلبون، وأولاد الكلبة، وابن القحبة المستمدة من الذاكرة الشعبية، لتعبر أولا عن حقد صالح الطبقي اتجاه الفئة الغنية، ولتبرز، ثانيا، من خلال ممارسات السبايبي وماضي عائلته، المنحدرات الطبقية والتاريخية لهذه الفئة والطرق غير الشرعية التي مكنتها من الاغتناء، والوسائل التي سخرتها [الرشوة] للانفراد بالسلطة الفعلية، ولتظهر ثالثا دورهم الخطير الممثل في نشاط السبايبي [انظر الجدول 1].

أما الفئة الوسيطة، فإنها تتشكل أساسا من الديوانه [الجدول 1] المشتقة أصلا من الكلمة الفرنسية douane، وتحيل هذه التسمية مباشرة على الوظيفة الجمركية، وتدل في الوقت نفسه على الدور الموضوعاتي للشخصية المتمثل في مراقبة البضائع عبر نقاط الحدود.

غير أن هذه التسمية قد تختفي ليحل محلها تارة اسم مركب "أبناء لاليجو" وتارة أخرى اسم حيوان "النمس" و "وحش الخلاء". يعكس سيم الحيوانية animalité، المدرج في دور هذه الفئة بوصفها أداة مسخرة لقمع الفقراء والتعاطف مع الأغنياء، ممارستها اللا إنسانية اتجاه صالح والمهربين الصغار:

"النمس لا يرحم[1]".

"في قلوبهم قيح"[2].

"يجد لذة كبيرة في إيذاء الناس[3]".

تشترك هذه الملفوظات في نفس الثقل الدلالي [العداء] لتترجم ما لاقته الفئة الفقيرة من قمع وعذاب.

---

(1) الرواية، ص. 41

(2) نفسه، ص. 41

(3) نفسه، ص. 41

وضمن هذه الفئة، يدخل صالح بن عامر الزوفري. نلاحظ أن الاسم الموضوع /الزوفري/ جاء ملحقا باسم العلم صالح بن عامر ليميز دوره الموضوعاتي عن بقية أدوار الشخصيات الأخر. ويدل /الزوفري/ المستوحى من الذاكرة الشعبية على الوحدة والعزلة والإقصاء. على أن هذه الدلالة قد تتوسع بالنظر إلى البرامج السردية التي يندرج فيها صالح كبطل لتشمل سيمات العذاب والتشرد والاضطراب الناتج عن طبيعية مهنة التهريب.

على عكس الشخصيات الأخرى، يبدو عمر بوحلاقي أكثر ألفة. إن اسمه /بوحلاقي/، المشتق من الحلقة [مجموعة من الأفراد] المحيطة به وهو يروي الأحداث، دليل شعبيته. وتؤكد هذه التسمية التي يتراجع فيها وينحسر دور الحكواتي، من جهة، الأولوية التي يوليها الراوي لاحتكاكه واتصاله الإنساني بفئة الفقراء، ومن جهة ثانية، الروابط المتينة والعميقة التي يقيمها مع هذه الفئة.

إلى جانب هذه الشخصية، يحتل احميدا القهواجي وضعا مركزيا في صلب القصة يتشكل أساسا من علاقاته المتنوعة بأهل القرية. ويتم بناء هذه العلاقات في النص انطلاقا من الدور الموضوعاتي لهذه الشخصية المثبت في تسمية /القهواجي/. ويتزامن حضور احميدا بشكل مكثف في متن القصة مع موت ابنه العربي. في هذه اللحظة المهمة من السرد، تتوقف مغامرة صالح ويتوقف الزمن الحاضر للقصة ليفتح على الزمن التاريخي temps historique، المعتبر كسناد حقيقي لأحداث الرواية[1]، يتضمن فضاءات الماضي [قبل استقلال الجزائر]التي مارس فيها احميدا أداءاته:

"... فهو حين عاد من الحرب كان يحمل في جيبه عشر فرنكات، كانت رصيده التاريخي كله. اشتغل برادعيا، ثم مزارعا خماسا..."[2].

---

(1) يمثل هذا السناد مفعول الحقيقة التاريخية في النص.

(2) الرواية، ص. 92

ولئن كانت هذه الأخبار القليلة التي ينقلها الراوي من الماضي تمثل خلاصة تجربة احميدا، فإنها لا ترقى إلى البرنامج السردي الخالص الذي يتميز بشكل خاص بالعلاقة الأساسية التي تربط الفاعل بموضوع رغبته. وعلى الرغم من ذلك، تظل هذه الأخبار مهمة ووظيفية fonctionnelles إذا أدخلناها في النظام الشامل للنص وأخضعناها للمنظور [الذي يتبناه الراوي في نقل الأحداث] المتمفصل على الثنائية الضدية الآتية: قبل [الاستقلال] عكس بعد [الاستقلال] التي يفسرها الوضع الحقيقي للمجاهد [بعد الاستقلال]. وتكرس هذه الثنائية المعادلة المثبتة في فترة سابقة من البحث:

من جاهد ← لا يملك
من خان ← يملك[1].

غير أن مأساة المجاهد، التي كنا قد طوقنا جانبا من جوانبها في فضاء البلدية، لم تتوقف عند هذا الحد، بل تزداد حدة على صعيد آخر؛ في فضاء السجن أين تتمادى الإدارة في إلحاق الضرر بابنه:

"... حين طلب القهواجي أن ينقل ابنه إلى المستشفى قالوا أن هذه قضية خارجة عن إدارة السجن وأن عليه أن يذهب إلى العاصمة يطلب إذنا بذلك. ظل يدور، وفي النهاية جلس بالقرب من ابنه الذي كان يحتضر، ينتظر لحظة موته"[2].

يدخل القهواجي، في هذا الملفوظ، كشخصية وسيطة، في صراع مع فاعل جماعي [ضمير الغيبة /هم/ في "قالوا"] رغبة منه في نقل ابنه من فضاء السجن إلى فضاء المستشفى، وفي تحقيق برنامج علاجه. غير أن هذه الرغبة سرعان ما تصطدم بمعارضة فاعل لا يفصح الراوي عن هويته؛ إنه ضمير الغيبة /هم/ الذي يذهب ابنه ضحية لنشاطه المعارض، كما ذهب صالح ضحية لنشاط هذا الضمير في مقر البلدية [انظر الفصل السابق]. وهذا يقودنا للقول بأن ضمير الغيبة/ هم/ المعارض لطموحات الفئة المجاهدة [صالح، القهواجي ...] ليس في الواقع سوى

---

(1) نفسه، ص. 95

(2) نفسه، ص. 95

شخصية واحدة تنقسم وتتعدد[1] على امتداد وضعيات سردية تعمل علـى إفـراز سلوكات خطيرة تهدد وجود وحياة الإنسان.

إن تجليات هذه السلوكات ستظهر على صعيد آخر، ولكن هذه المرة في فضاء المستشفى أين تصل درجة الإهمال وسوء التسيير إلى ارتكاب جرائم في حق **من لا يملك:**

"... يا الله كل هذه المجزرة. كانت رجلا المسيردية ما تزالان مفتوحتين عن آخرهما. عيونها بيضاء. دماء على الأرض. بقايا أصابع دقيقة لطفل سـقط فـي اللحظة من رحم موجوع. رأس الصغير مفصولة عن جسده، بطنه مفتوحة، أمعاء تمتد من تحت السرير حتى فتحة الباب (...) ثم فوجئت بقطط هرمة حاولت عبثـا أن تضربها وأن تقوم من مكانها لتجمع شتات صغيرها. حين أدركوها كانـت قـد نزفت حتى الموت"[2].

يقدم لنا الراوي، في هذا الملفوظ، وصفا دقيقـا للوضـع الـذي آلـت إليـه المسيردية ومولودها اللذان يتقدمان كشخصية ضحية personnage - victime لتهاون الهيئة الطبية داخل **مؤسسة رسمية.**

تتجلى دقة الراوي في الوصف في توقفه عند كل طرف من أطراف المولـود المبتورة المجزأة والمشتتة. تتحول صورة الأطراف المشتتة بسرعة إلى أكلة قابلة للاستهلاك، إلى بقايا، فضالة تعبث بها قطط المستشفى؛ إنها أخطر وضعية ينحدر إليها الإنسان في زمن صعب، زمن **الجزائر المستقلة**. والغريب في الأمر أن نفس ضمير الغيبة /هم/ الذي كان وراء تشريد صالح وعذاب القهواجي وضياع ابنه يأتي

---

(1) تتبدى هذه الشخصية عبر ممثلين متميزين في متن النص:

م1 ↖

م2 ← ش

م3 ↙

-A. J. Greimas , Du sens II ,p. 49

- J. Courtés , Introduction à la sémiotique narrative et discursive, p. 95

(2) الرواية، ص. 58

هذه المرة وبقوة [حين أدركوها] ليمارس عنفه على المسيردية ومولودها. إن هـــذه الشخصية التي تتقسم، وتتعدد، ولا يفصح الراوي عن هويتها تحقق في ســـلوكاتها الخطيرة المثل الشعبي:

"قد ما عندك قد ما تسوى"[1]. تقاس **كينونة** الإنسان **بملكه** avoir.

لا يمكن أن نفهم هذه السلوكات التي تتضافر وتتشابك في صلب بنية مركبة من النفوذ Pouvoir والملك Avoir والمتعة إلا إذا سامتناها ببنية ضديدة نحصل عليها [استنادا إلى الجدول 2] بقلب الأدلة[2] Inversion des signes:

الجدول 2:

	الفئة الغنيـــة	الفئة الفقيرة
المفترض	السلطة	اللا سلطة
المطروح	الملك	اللا ملك
المضمر	المتعة	العذاب

بهذا الجدول، نكون قد توصلنا إلى تطويق الآليات التي تحكم الشبكة الدلاليـــة للنص وتغذيها. وهي مبنية، على نحو ما رأينا ذلك في المسارين أ وب، والبرنامج الســـردية ومساراتها الصورية، والجدول1 و2، على أساس طبقي يتمـــاهى فـــي السياقين الاجتماعي/التاريخي ليجسد صراعا حادا بين فئتين متناحرتين ومتقابلتين: فئة تتحرك من موقع رغبتها في تنمية رأس مالها وتركيع القرية بكاملها وتعـــذيب أهلها وفئة تتحرك دفاعا عن شرفها وحقها في الوجود والحياة.

---

(1) نفسه، ص.108.

(2) J. C. Coquet , Le discours et son sujet , p. 82.

الملحق رقم 1: الرسم الوظيفي للرواية

أ ب ج ح د ر ك م ن ه و ي

ص8 ص.26 ص.32 ص.48 ص.60 ص.73 ص.99 ص.107 ص.118 ص.161 ص.193 ص.201

اختفاء صالح

حي البراريك

السوق

تنقل فضائي

سيدي بلعباس

مسيـــــــــــــردة

البلدية

فضاء لونجا

حي البراريك

محــــور مغامـــــــرات صالـــــــــح

ظهور صالح

بيبليوغرافيا البحث (مرتبة حسب ظهورها في النص)

- واسيني الأعرج، نوار اللوز، تغريبة صالح بن عامر الزوفري"، دار الحداثة، بيروت، 1983.

- تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، **إغاثة الأمة بكشف الغمة، أو تاريخ المجاعات في مصر**، دار ابن الوليد ودار الجماهير الشعبية، دمشق، 1956.

- ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد الأول، دار الجيل، دار لسان العرب، بيروت، 1988.

- إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد على النجار، **المعجم الوسيط**، إستانبول، تركية، 1989.

- **آفاق**، مجلة اتحاد كتاب المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1990، العدد الأول.

- E. Benveniste, **Problèmes de linguistique générale** ,Gallimard ,Paris,1974,T. 2.

- C. Duchet,"**La fille abandonnée"et "La bête humaine" éléments de titrologie romanesque**,Littérature n° 12,p. 52.

- J. Ricardou,**Nouveaux problèmes du roman**,Seuil, Paris , 1978.

- آن إينو، **مراهنات، دراسة الدلالات اللغوية**، ترجمة أوديت بيتيت وخليل أحمد، دار السؤال للطباعة والنشر، دمشق 1980.

- محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق عبد الكريم العزباوي، مراجعة إبراهيم السامرائي وعبد الستار أحمد فراج، ج2، مطبعة حكومة الكويت،1967.

- Tomachevski. B. V"Thématique" in **Théorie de la littérature,** Textes des formalistes russes et traduits par T. Todorov, Seuil, Paris, 1965.

- C. Bremond, **La logique des possibles narratifs,**in Communication 8, Seuil, Points, Paris,1981.

- E. Souriau, **Les deux cents mille situations dramatiques,** Flammarion, Paris , 1950.

- Thomas G. Pavel, **La syntaxe narrative dans les tragédies de Corneille**, Klincksieck, Paris , 1976.

- J. Courtés, **Introduction à la sémiotique narrative et discursive,** Hachette, Paris, 1976

- A. J. Greimas, **Sémantique structurale**, P. U. F , Paris , 1986.

- A. J. Greimas , J. Courtés , **Dictionnaire raisonné de la théorie du langage** , Hachette , Paris , 1979.

- A. j. Greimas , **Du sens II, Essais sémiotiques** , Paris , 1983 .

- Jean Claude Coquet, **Le discours et son sujet, Klinksieck, Paris, 1985.**

- Joseph Courtés, **Analyse sémiotique du discours**, Paris , 1991.

- واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

- بنكراد سعيد، **مدخل إلى السيميائيات السردية**، دار تينمــل للطباعــة والــشر، مراكش، المغرب، 1994

- دانيل ريغ، **قاموس السبيل**، لاروس، باريس،1983 .

- Groupe d'Entrevernes , **Analyse sémiotique des textes** , P. U. L , Lyon , 1984

- A. J. Greimas , **Du sens** , Paris , 1970.

- J. M. Adam , **Le récit** , P. U. F , Paris , 1991.

- Philippe Hamon, **Pour un statut sémiologique du personnage**, in **Poétique du récit**, Seuil , coll. Points , Paris ,1977

- الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، الجزء الثالث، دار الجيل، بيروت.

- G. Genette , **Figures III** , Seuil , Paris , 1971.

- R. Wellek , A. Warren , **La théorie littéraire** , Poétique, Seuil , Paris , 1971.

- O. Ducrot , T. Todorov ,**Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage** , Seuil , Paris , 1972 , p. 291.

- C. Grivel , **Production de l'intérêt romanesque**, Mouton, Paris, 1973

قراءة سيميائية في رواية

"عواصف جزيرة الطيور"(1)

للروائي خلاص جيلالي

⓪. مقدمة منهجية

سنقتصر في هذه الدراسة على فحص المضامين الدلالية لرواية "عواصف جزيرة الطيور" من خلال تحليل البرامج السردية الأساسية للقصة والرهانات الموجودة بين الفاعلين المنفذين ومواضيع القيمة المستهدفة. وتعد هذه الرهانات في القصة التي بين أيدينا **سياسية** بالدرجة الأولى وتمس بشكل مباشر العلاقة بين السلطة والشعب في حقبة تاريخية طويلة تبدأ بالغزو الفرنسي للجزائر وتنتهي بأحداث أكتوبر الأليمة التي هزت الجزائر المستقلة في 1988.

تعالج الرواية إذن فترة حاسمة في تاريخ الجزائر قدمت حولها قراءات وتأويلات متباينة وصلت إلى حد التناقض أحيانا وهي خاضعة في الأعم الأغلب إلى استراتيجيات سياسية يتبناها هذا المحلل أو ذاك لتعزيز توجه سياسي مبني سلفا.

في هذا البحث المتواضع، لا نولي أهمية لهذا النوع من الدراسات التي تصدر أحكام قيمة هي إلى الذاتية أقرب منها إلى الموضوعية التي تستمد أصولها من التفكير العلمي المرتكز أساسا على صوغ الفرضيات والتحقق منها في أثناء البحث. ولا ننظر إلى الممارسة النقدية على أنها منبر للدفاع عن قضية سياسية أو إيديولوجية. كما أننا لا نولي أهمية للتحليلات التي تدرس النص من خارجه. لقد أثبتت مثل هذه التوجهات النقدية فشلها في فض الإشكالات التي يطرحها النص على جميع الأصعدة.

---

(1) خلاص جيلالي، عواصف جزيرة الطيور، المطر والجراد، منشورات مارينور، الجزائر، 1998.

1. رهانات الصراع في الرواية

تبدأ هذه الرواية بوضع مضطرب تقف وراءه "الأمواج الهائجة التي تحاول زعزعة أقدام البرج" [الرواية، ص. 12].

تحتل هذه الأمواج موقع الفاعل المنفذ sujet opérateur في برنامج سردي programme narratif يرمي من خلاله إلى قلب نظام الحكم الممثل في الهيئة اللافظة "نحن" (تحصنا) التي تتساءل في حيرة عن طبيعة المحرك الذي يثير مكامن كفاءة سياسية تشكلت بشكل فاجأها،على الرغم من أنها تدرك تلك المرات العديدة التي وقع فيها الشرخ. إن حضور هذه الهيئة في السلطة لا يمكن للقارئ أن يفهم علته إلا إذا أدرك طبيعة البرنامج الذي تسعى إلى تنفيذه ورهانات الصراع الحقيقية بين السلطة والشعب. يتمثل مصدر الصراع في بداية القصة في الهوة العميقة الموجودة بينهما:

"تتأسف على المرات العديدة التي وقع فيها الشرخ، ففرقتنا الأزمة" [الرواية، ص. 11].

ولئن كان التأسف علامة من علامات الحزن والندم، فإنه في ذات الوقت إقرار السلطة بفشلها في تسيير أمور الدولة وهو فشل تكرر مرات عديدة مما تسبب في نشوء الأزمة بين الحاكم والمحكوم. يجدر بنا أن نتساءل، في هذا المساق، عن أسباب نشوئها.

إن هذه الأسباب لا تخرج في جميع الحالات عن حدود الكفاءة السياسية للهيئة الحاكمة والتي تندرج ضمن برنامج سياسي معطى يكون الهدف منه العمل على إرساء دعائم العدالة الاجتماعية والدفاع عن الحقوق الشرعية للمواطن.

1-1 الأبعاد الدلالية لتسيير الفعل السياسي: السلطة/ الشعب/ المثقف

ودون أن نحاول إضفاء تأويلات قد لايتحملها النص، سنلجأ إلى استقراء الملفوظات السردية في القصة انطلاقا من نظرية الجهات théorie des

modalités. سيساعدنا هذا المنحى المنهجي على النظر بعمق في طبيعة العلاقة الموجودة بين الحاكم وفعله السياسي.

1 "لن تتوانى في تمزيق رئانا وضلوعنا،علها تعثر،ضمن أشلائها، على بعض المعادن الثمينة واللآلئ التي ستضاف إلى أرصدة مالكيها في بنوك المقايضة الشمالية" (الرواية، ص. 13).

2 "غير أنني لم أتصور أبدا أن تبلغ الأنانية والجشع بأولئك الوحوش (...) تلك الدرجة المقيئة المقززة لمجرد التفكير في شناعتها التي لا تختلف عن الخيانة الكبرى (...). وهل هناك كلمة أوسع معنى من الخيانة إذا ديست المبادئ ولم الوطن ككمشة تراب ليودع تبرا في الجيوب الشخصية" (الرواية، ص. 61).

3 "الأغبياء، لم يفهموا موقفي طبعا وهل فهموا شيئا في هذه الحياة؟ الملذات طغت على أفكارهم وحواسهم فلم يعودوا يرون من الحياة سوى ثلاثة: المال والنساء والخمر. حتى الوطن وضعوه في الجيب حتى لا يفلت منهم" (الرواية، ص. 62).

في المقطع السردي الأول، يسخر الفاعل الجماعي [القاهرون الغلاة] إرادته في تنمية الثروة، ويوجه إنذارا هو بمثابة التهديد للأمواج البشرية ويؤسس نفسه بالسلطة السياسية التي يملكها فاعلا مضمرا في برنامج عسكري تكون الغاية منه قمع كل مشروع حامل لبذرة التمرد على النظام. ينبغي أن نفهم التهديد، هنا، على أنه يعبر، من ناحية، على حالة غضبية، ويستعمل، من ناحية ثانية، للدلالة على فعل كلامي يرمي من خلاله إلى إقناع الآخر بالخطر المحدق به. يتضح المضمون الدلالي للتهديد بصورة/تمزيق الرئى والضلوع /. ويحمل التهديد بعده الدال بقوته الردعية التي تجسدها قدرته العسكرية ["دبابات وهليكوبترات ورشاشات وجيبات (...) وقنابل مسيلة للدموع" (الرواية، ص. 11)].

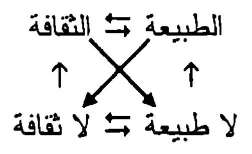
وبالتالي فإن خرق الفاعل لمبدأ حق الأمواج البشرية في الحياة احتمال يبقى واردا وذلك في سبيل تنمية ثروته في البنوك الأجنبية. تأسيسا على هذا؛ "تتحول الإرادة إلى الجهة المؤسسة للعامل الفاعل"(1) ذلك أن علة وجوده في السلطة مرهونة سلفا باشتداد حرصه على جمع أكبر قدر من الثروة والمال. إن الرغبة في الملك تلغي جميع الخدمات المشروعة التي يمكن أن تقدم إلى المواطن. ولهذا فإنه يتصرف في شؤون الدولة وفي حياة الشعب وكأنها ملكه الخاص.

تتحقق صورة /الجشع/ بكل أبعادها الدالة قي المقطع السردي الثاني ومن خلال صورة /الوحوش/ الملحقة بالقاهرين الغلاة والتي تدخل في علاقة تنافر مع السمات المميزة للإنسان. تحيل الأولى على عالم الطبيعة بينما تحيل الثانية على عالم الثقافة.

على الصعيد السردي، يبدي الراوي رغبة حادة في رفض عالم الوحوش المثير للتقزز والتقيؤ.

ويتحدد مساره على المستوى العميق بنفي القيم التي يفرزها هذا العالم والدعوة إلى تبني القيم المنبثقة من عالم الثقافة. وإذا دققنا النظر في مسار الوحوش، نلاحظ أنه يتحرك في برنامج سردي يهدف إلى نسف كل القيم التي تجعل من الإنسان إنسانا.

يمكن أن نثبت تجليات هاتين العينتين في المربع السيميائي الآتي:



(1) Jean Caude Coquet, Le discours et son sujet , Pratique de la grammaire modale , T2 , Klincksieck , Paris,1985,p. 33 .

تقتصر مهمة تسييره لشؤون الدولة على الدخول في وصلة بموضوع قيمة لا يتعدى إطار المال والجنس والخمر كما يظهر ذلك واضحا في المقطع السردي الثالث. إن الراوي لا يعرف نفسه في هذا الإطار لانسداد عملية التواصل بينه وبينهم (لم يفهموا موقفي طبعا). فهو في حالة إحباط ناتجة أصلا عن حرمان هؤلاء للمواطن من حقه الطبيعي في الحياة والوجود. هذه العلاقة ليست مربوطة فقط بتلك الموجودة بين الفاعل وموضوع القيمة بل مؤسسة أيضا على علاقة تكاد تكون تعاقدية بينه وبينهم[1]. إن الراوي في هذا المساق ينتقدهم بحكم وجودهم في السلطة لخرقهم العقد الذي يملي عليهم واجبات ولاستحواذهم على مراكز قرار ليسوا أهلا لها. إن الحمولة الدلالية للأغبياء تترجم استياء الراوي من وضع مترد يفتقر فيه الفاعلون السياسيون إلى المعرفة وبالتالي إلى القدرة على تسيير شؤون الدولة وتترجم أيضا قلقه من هاجسهم الأساسي الذي تقف وراءه رغبتهم الحادة في الدخول في وصلة بموضوع قيمة يعتبر فيه الوطن المعادل الموضوعي للمال:

"وهل هناك كلمة أوسع معنى من الخيانة إذا ديست المبادئ ولم الوطن ككمشة تراب ليودع تبرا في **الجيوب الشخصية**" [الرواية، ص. 61].

"حتى الوطن وضعوه في **الجيب** حتى لا يفلت منهم" [الرواية، ص. 62].

ينفتح الملفوظ الأول على تشكل خطابي configuration discursive[2] يحيل على/ الخيانة/ بوصفها مخالفة خطيرة لما تمليه واجبات السلطة، وتظهر تجلياتها في مسارين صوريين يمكن أن نبرزهما على النحو الآتي:

الخيانة

↙ ↘

أ {دوس المبادئ   ب{ وضع الوطن في الجيب

(1) A. J. Greimas , Du sensII , Essais Sémiotiques, Seuil,Paris,1983, p. 227.
(2) Groupe d'Entrevernes, Analyse sémiotique des textes P. U. L,Lyon1984 ,p. 95 .

ينضوي المسار الصوري [أ] داخل سياقات مفتوحة على العنف الذي تم به خرق القيم الضابطة لسلوك الإنسان، ويتجانس دلاليا مع المسار [ب] تجانسا يحيل على الخطورة التي وصل إليها وضع يتسم بنهب موصوف ويتحول فيه المستحيل إلى الممكن. إن تحقيق هؤلاء للفعل المستحيل: / وضع الوطن في الجيب/ أضحى حقيقة لا تتوقف دلالتها عند لم هؤلاء للوطن /ككمشة تراب/ بل تتعداه لقطع الشعب عن أعز ما يملك [الانتماء] وإذلاله.

يتجسد المسار الصوري للإذلال والقمع عبر برنامج سردي خاص بالرقابة المضروبة على كل ما تكتبه وتنشره وسائل الإعلام على نحو ما يظهر ذلك واضحا في الملفوظ السردي الآتي:

"سجين أنا إذن. السبب؟ التعليق على خبر نشرته إحدى صحف الجزيرة وتأويله خطأ فالمساس بأمن" المشيخة" ومحاولة تشويه سمعة الشيخ الأكبر حامي الأمة" [الرواية، ص. 46].

يحتل الراوي في هذا المقطع موقع فاعل حالة sujet d'état في فصلة عن موضوع قيمة /الحرية/. ينبغي أن نشير في هذا السياق إلى أن التقويم التداوليsanction pragmatique[1] من منظور المرسل المقوم يتمثل في بداية الأمر في الحكم الإيبيستيميjugement épistémique على تطابق (أو عدم تطابق) البرنامج المحقق من الفاعل مع النظام الخلاقي système axiologique الذي ينظم العلاقة بين الراوي بوصفه صحافيا والسلطة المجسدة في الشيخ الأكبر؛ حامي الأمة. إن هذه العلاقة مبنية أصلا على العقد المقترح أو المفروض من دوائر السلطة بوصفها المرسل /المحرك destinateur/manipulateur[2] لكل برنامج صحفي. تأتي هذه الهيئة في نهاية كل برنامج لتتحقق، في إطار التقويم، من

---

(1) J. Courtés, Analyse sémiotique du discours, Hachette,Paris,1991,p. 212

(2) احتفظنا هنا بالترجمة التي وضعها أستاذنا دانيال ريغ لـ مصطلح manipulation (تحريك) في:

- السبيل، معجم عربي/فرنسي – فرنسي/عربي، لاروس،باريس، 1983. وهي الترجمة نفسها المثبتة في:

- سعيد بن كراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، دار تينميل للطباعة والنشر، مراكش،

تنفيذ العقد. انطلاقا من الملفوظ السردي المثبت أعلاه، نلاحظ أن الفاعل (الراوي) قدم خبرا مخلا بذلك شروط العقد [السكوت]. فهو لم يقف عند حدود نقـل الخبـر الآتي:

"اكتشفت دورية بحرية فجر أول أمس أربعة جثث على أحد شواطئ العاصمة "البيضاء" يكون قد رماها البحر" [الرواية، ص. 46].

بل ذهب إلى أبعد من ذلك باكتشافه لأسرار الخبر وتأويله بشكل **خاطئ**:

"سجين أنا إذن لأنني اكتشفت أسرار الخبر [الرواية، ص. 47].

يعد الفعل التأويلي للراوي خطرا على /أمن المشيخة/. بقي لنا الآن أن نحـدد درجة خطورة هذا الفعل من خلال استقراء الملفوظات السردية الآتية:

(أ) "لا أحد يريد أن يتحدث عن مصير هؤلاء المختفين، اللهـم إلا الرضوخ لتلك الزفرات المبررة بوقائع تاريخ غريـب مملـوء بالإختطافات" [الرواية، ص. 52.]..

(ب) غير أن الخيط الذي يربط جميـع حـالات الاختفـاء هـو أن ضحاياها كانوا يمارسون "السياسة". هكذا يقول سكان المدينـة متهامسين "[الرواية، ص. 52].

ينبني الملفوظان السرديان على برنامج الاختطاف. وهو برنامج يتوزع زمنيا على حقبة تاريخية غير محددة ولكنها مربوطة بلحظة حاضرة يؤكد فيها الراوي، بوصفه هيئة ملاحظة، على افتقار سكان المدينة إلى الرغبة في الحديث عن مسألة الاختطافات. ولئن كان هؤلاء لا يملكون الرغبة في الكلام فلأنهم يفتقرون أيضا إلى القدرة عليه. على هذا الأساس، بقيت معرفتهم معطلة على مـستوى /الهمـس/ لا يملكون القدرة على تبليغها والإفصاح بها /جهرا/ وذلك خوفا من بطش السلطة. ويعد الحديث عن السياسة في أبسط الحالات المعادل الموضوعي للموت[ب].

"الجلاوزة، تذكرتهم، سيارتهم، خداعهم (...) إنهم يحملونني الآن بعيدا، لا شك أنهم يرمونني في البحر" [الرواية، ص. 66].

هكذا نلاحظ أن السلطة بأجهزتها الأمنية تعمل كل ما في وسعها لتعطيل قنوات التواصل بينها وبين السكان وتثبيت نظام قائم على قمع الحريات الفردية والجماعية. إن عثور الدورية البحرية على الجثث وتبليغ خبر الكشف عنها يقدم مؤسسات السلطة على أنها حاضرة بقوة في حياة المواطن لإغاثته في أية لحظة ممكنة. وهي في الخفاء تعمل كل ما في وسعها لمحاصرته وفرض الرقابة الصارمة عليه على نحو ما يظهر ذلك واضحا في المقطع السردي الآتي:

"وكنت من بين الذين قصدهم رجال الأع للتحقيق معهم في أمور كنت أعتبرها غريبة: كأن يسألونك عن رمز الجن في كتاباتك ومغزى البخور في صورك الشعرية، ولماذا تداوم على تكرار هاتين الكلمتين في مسارك الأدبي كله؟" [الرواية، ص. 73].

يشكل رجال الأع فاعلا منفذا في برنامج التحقيق يسعى إلى الدخول في وصلة بالمعاني المحملة في الكتابة الشعرية. إن افتقارهم إلى المعرفة يجعلهم يشكون في أي شيء. أضحت المعرفة تشكل خطرا على وجودهم؛ فهم لا يرتاحون للنمط المثقف. إنهم يقرؤون ولا يفهمون:

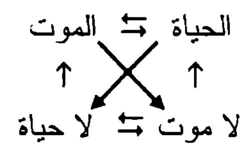
"وهل فهموا شيئا في هذه الحياة؟" [الرواية، ص. 62].

يقوم الراوي بفضح مكامن السقوط في السلطة. أسندت لهم مهام ليسوا مهيئين لها سلفا. المثقف معرض للخطر في أية لحظة. إن خطورة هذا البرنامج تتمثل في الإفرازت المدمرة التي يخلفها:

"...هكذا وجدتني أسأم وأغرق في سوداوية لا نهاية لها استوى عندي الليل والنهار (...) وهجرتني الأفكار حتى

خلتني موشكا على نوع من الجنــون (...) قــد يـــأتون ويحققون معي عن: لماذا جننت وما معنى جنونك في هذه الأيام بالذات" [الرواية، ص. 74].

إن صور /السأم/ و/الغرق/ تشكل مسارا صوريا يحيل مباشرة على اضطراب الراوي واغترابه. إننا في عالم تحكمه ضوابط صارمة مــستمدة مــن المرســل/ المحرك السياسي وممارسة على المرسل إليه الفاعل. الأوامر عنــد الأول إلــزام [=/وجوب الفعل/] وعند الثاني، قيود. لا يقوى الراوي على تحملها. إنها لحظــة انهيار عارمة فقد معها سلطته على الكلام والأفكار ووجوده كإنسان. أضحى فــي عالم لا يحكمه الزمن الوجودي. عالم متسم باليأس والسوداوية. إن صورة /النهار/ التي تحيل على عالم الحياة اندغمت في صورة /الليل/ المقترنة بصورة / الغــرق/ وأضحت محملة بقيمة /الموت/. يمكن أن نفهم هذا الوضع المتردي المتسم بالتوتر والقلق الذي آل إليه الراوي من خلال المربع السيميائي الآتي:



إن الرقابة المفروضة عليه أفقدته عقله وحركته في بداية الأمر للتخلــي عــن حياة يحكمها نظام قيم جرده من حقه في التعبير والوجود ودفعه بعنف في منطقــة فقد فيها القدرة على التمييز والسيطرة على العقل بوصفه القوة المنظمــة لــسلوك الإنسان. لهذه الاعتبارات، يبدو الراوي رافضا لعالم لا يعرف نفسه فيه ومضطربا في منزلة وسطى بين الحياة والموت وراغبا في ولوج عالم تحكمه قوانين لا يخضع لها العقل. إن نزوعه إلى هذا الفضاء ناتج أصلا عن الفعل الإغرائي الذي يمارسه عليه الجنون ["أغراني دخول عالمه" الرواية، ص. 74]. يمكن أن نوضــح هــذه التخريجات الدلالية في الرسم الآتي:

الحياة   الموت

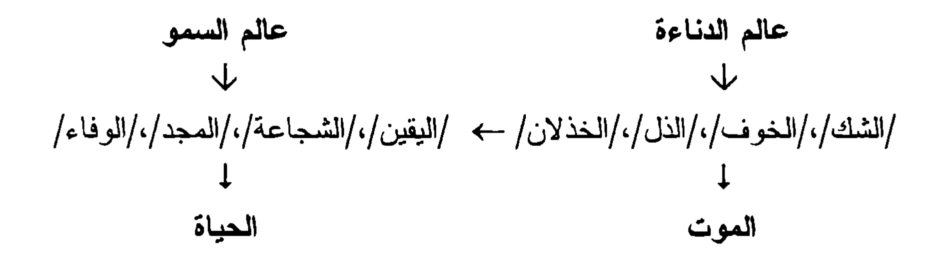
↑ ↙

اللا حياة

غير أن الراوي سرعان ما يدرك خطورة اللعبة التي استدرجه إليها الجهاز القمعي للسلطة، فبدأ يخرج تدريجيا من الهوة العميقة التي أقحم فيها [منطقة اللا حياة]، ويدخل في عالم اقتنع بضرورة تغييره [عالم الحياة]. نلمس هذا التحويل الذي مس البنية السردية في الملفوظات الآتية:

"...الشك، الخوف، الذل، الخذلان، وما يشابهها من مشاعر دنيئة خسيسة،هل تلازمنا إلى الأبد أم سنقبل يوما على استئصال جراثيمها الخبيثة" [الرواية، ص. 74].

بهذا الشكل بدأت تتشكل عناصر كفاءة الراوي لتحقيق أداء التمرد على الوضع. نلحظ هذا التشكل على مستوى جهات /الوجوب/ و/الإرادة/ و/القدرة/. ويمكن أن نفهم حقيقة هذه الجهات التي كان يفتقر إليها إذا انتقلنا إلى الصعيد الخطابي حيث نلاحظ أن صور /الشك/،/الخوف/،/الذل/،/الخذلان/ المحملة بقيمة الدناءة تأتي لتفرز تشكلا خطابيا configuration discursive يحيل على الحالة الشعورية للراوي. وهي حالة متسمة بشعور يعبر عن رفضه لقيمة الدناءة ورغبته في السمو المجسد في صور/اليقين/،/الشجاعة/،/المجد/،/الوفاء/. هذه الصور وإن كانت غائبة، فإنها حاضرة بقوة حضورا يعكس وضعا سرديا جديدا متسما بثقة الراوي في نفسه ["سنقبل يوما على استئصال جراثيمها الخبيثة" (الرواية، ص. 74)] وعزمه على تحيين مشروع ["استئصال الجراثيم الخبيثة للمشاعر الدنيئة"] تتصدره رغبة في الانتقال من عالم الدناءة إلى عالم السمو:



إذا نقلنا هذه المعطيات على الصعيد العميق، يمكن أن نفهم أهمية هذه النقلة التي تمثل استعادة الراوي لوعيه وخروجه التدريجي من اللاحياة [منطقة الجنون] إلى الحياة [منطقة العقل والوعي]:

وتتم هذه العملية من خلال نفي الراوي لقيمتي الموت والجنون وتأكيد رغبته في الدفاع عن حقه في التعبير والحياة والوجود:

الحياة　　الموت

↑　　↘

اللاموت

وإذا كان الراوي مقتنعا اقتناعا كليا بضرورة تغيير الوضع وتحقيق المشروع على النحو الذي ارتضاه لنفسه، فإن الاغتيال حال دون تحقيقه لهذه الرغبة:

"فنهاية هذه الصفحات غامضة، بل خطيرة وكأني بكاتبها قد مات وهو يكتبها، وبدقة عندما وصل إلى الاقتناع بشيء خطير (لاحظوا أنه أنهاها بعبارة: وسرعان ما رحت أقنع نفسي أن..." [الرواية، ص. 76].

"يحتمل جدا أن رجال "الأع" الذين يطاردونه، كما أثبت ذلك في مخطوطه، يكونون قد فاجأوه وهو يكتب فأخذوه إلى مكان ما أو قتلوه" [الرواية، ص. 74].

استنادا إلى هذا المقطع السردي، نلاحظ أن السلطة بجهازها الأمني المحكم تفصح عن حقيقة كينونتها المتمثلة في **مطاردة** أو **اختطاف** أو **اغتيال** كل فاعل يدلي برأي مخالف لها **جهرا** أو **كتابة**. يجد الفاعل نفسه في جميع الحالات أمام أمرين:

إما أن ينضم إلى السلطة فيعرب عن توافقه مع قيمها فيتماها في نظامها وتكتب له الحياة ومتعها أو يعرض عنها ويحقق وجوده في معارضتها فيموت. يمكن أن نلمس هذه الممارسة بوضوح في المقطع السردي الآتي:

". . . بوجبل النقابي الذي رفض الانضمام إلى "المشايخ" فأخفوه إلى الأبد عقابا له عن عصيانه وعقوقه بسكناه حي جبل "شعبي" بدل. الفيلا التي منحها له الشيخ الأكبر في حي "المشايخ" [الرواية، ص. 51].

يرتكز هذا المقطع على بنية التبادل[1] structure de l'échange التي تشيد على تماثل القيم المبدلة (م1 ≈ م2)[2]. إن الشيخ الأكبر بوصفه فاعلا سياسيا محركا يقدم هدية [فيلا] للنقابي بوجبل لتتحقق بذلك نقلته من فضاء شعبي إلى فضاء رسمي [حي المشايخ]. وفي مقابل ذلك يقدم له بوجبل هدية ضديدة contre-don وهي الانضمام إلى المشايخ والتنازل عن الدفاع على حقوق العمال تفاديا لأي صراع اجتماعي محتمل قد يهدد وجود السلطة مؤديا بذلك إلى وضعية متوازنة مناسبة للحالة العادية للعلاقة بينه وبين السلطة. تأسيسا على هذا، تقوم بنية التبادل، على الأقل على الصعيد النظري، على عقد ائتماني contrat fiduciaire ضمني بين الطرفين. ويكفي أن يرفض أحدهما قيمة الهدية ليفسخ العقد. وهذا ما وقع بالضبط في الرواية التي بين أيدينا. بوجبل النقابي رفض الدور الموضوعاتي rôle thématique الذي أسنده إليه. وهو رفض دال لاعتبارات عديدة:

---

(1) A. J. Greimas,J. Courtés,Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette,Paris,1979,p. 114.
A. J. Greimas, Du Sens II, Seuil, Paris, 1983. p. 39/44

(2) م = موضوع القيمة.
على هذا الأساس " تفترض إقامة التماثل بين الموضوعين معرفة سابقة حول قيمة القيم. و يقوم التبادل المتوازن على الثقة المتبادلة. و بعبارة أخرى،على عقد ائتماني،ضمني أو صريح بين المساهمين في التبادل. تأسيسا على هذا،إذا كان التبادل بوصفه شكلا من أشكال تبليغ القيم يملك، على وجه الدقة، بنية محددة،فإن تأويله مرهون أساسا بشكل العقد الذي يتقدمه ويؤطره. و يتحمل هذا الشكل كل تحريكات مقولة الكينونة والظاهر". انظر:

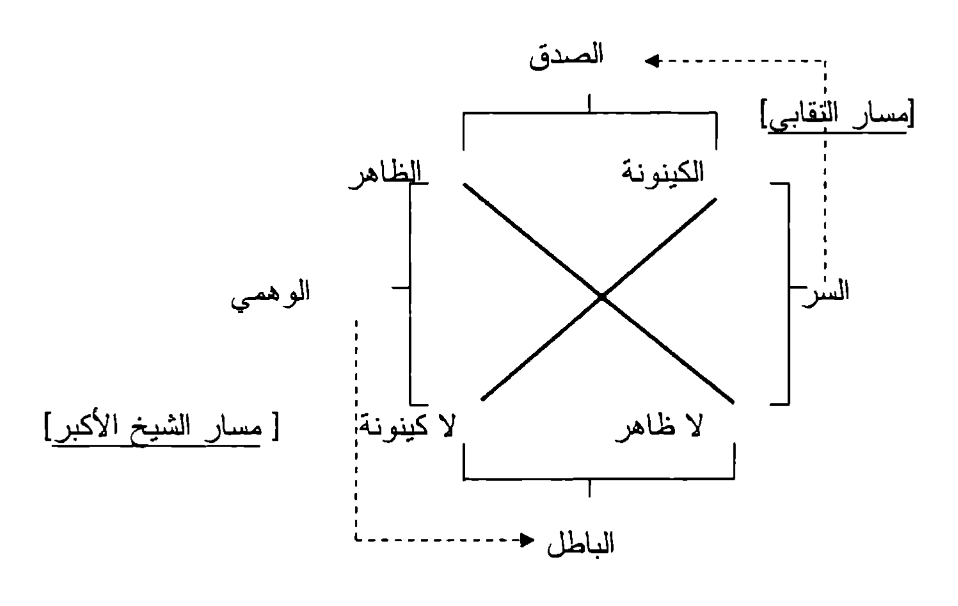
-A. J. Greimas, Du SensII, Seuil, Paris, 1983. p .43 .

أولا: إن قبوله يعني بكل بساطة خرق العقد بينه وبين العمال وتخليه في ذات الوقت عن تأدية دوره القيادي المحرك والمعبئ، ويعني من ناحية ثانية التنازل عن إرادته وقدرته على الدفاع عن حقوق العمال.

ثانيا: نلاحظ من جهة ثانية أن مجرد تفكير الشيخ الأكبر في الهدية يعد اعترافا منه بأن الوضع الذي يوجد عليه العمال متردٍ للغاية والحل الوحيد للحيلولة دون تمردهم على السلطة هو امتصاص غضبهم عن طريق احتواء ممثلهم بتجريد كفاءته من القدرة والرغبة [فعل اللافعل].

ثالثا: إن رفض النقابي للعرض يعني رفض الدخول في لعبة السلطة وتمرده على القيم التي يمررها نظامها. ويعني الوفاء لقيم النظام الذي ينتمي إليه ولطموحات العمال التي أخذ على عاتقه الدفاع عنها.

يمكن أن نفهم حقيقة اللعبة التي أراد الشيخ أن يحشر فيها النقابي باللجوء إلى المربع التصديقي carré de véridiction[1] الآتي والخاص بالظاهر paraître والكينونة être:



---

(1) لمزيد من التفصيل حول هذه المسألة، انظر :

- J. Courtés, **Analyse sémiotique du discours**, Hachette , Paris ,1991, p. 116 .

يقدم الشيخ الأكبر للنقابي ظاهرا يعبر عن فاعل سياسي يفكر في شؤون الرعية ويسهر على إرساء دعائم العدالة الاجتماعية، فهو يتظاهر بأنه يفكر في وضعه الاجتماعي ويبدي رغبة حادة في نقله من سكن في حي "شعبي" إلى فيلا في حي "رسمي" [حي المشايخ]. ويقدم له الهدية [فيلا] عربونا لصدق نيته. كنا قد وضحنا أعلاه الأسباب التي جعلت النقابي يرفض عرض الشيخ الأكبر. يعني هذا الرفض إسقاط قناع السلطة [الشيخ الأكبر] ويظهر بذلك وضعيتها الوهمية وهي وضعية باطلة للاعتبارات السالفة الذكر. لقد أخطأ الشيخ الأكبر في توقعاته ولم يفكر في جميع الاحتمالات الممكنة. إن خروج النقابي من وضعية سرية وانتقاله عبر نفي الظاهر إلى الوضعية الصادقة تشكل مفاجأة لم تخطر ببال الشيخ الأكبر نتج عنها اضطراب في الوضع انتهى باغتيال النقابي.

انطلاقا من المعطيات النصية، وتأسيسا على الملاحظات السابقة، يمكن أن نسجل، على مستوى القصة، القطيعة الموجودة بين السلطة والشعب، وغياب قنوات التواصل بينهما على جميع الأصعدة. وقد لجأ الراوي منذ بداية إلى تنويع زوايا النظر لهيئات تلفظية تروي من موقع تجربتها ما وقع لها من أحداث مأسوية تسببت فيها السلطة. إن هذه التجارب هي بمثابة الشهادات الحية تجري مجرى الحجة على الممارسات القمعية للسلطة وهي حجة تلغي علة وجودها في هرمها مادام حضورها لا يمثل الشعب ولا يخدم إلا فئة قليلة وهي فئة "المشايخ". على هذا الأساس، نلاحظ أن استراتيجية الخطاب، في هذه الرواية، ترتكز أساسا على آلية منطقية يتم فيها بناء الفعل الإقناعي من داخل النص وعلى أساس الوضعيات السردية المفرزة على الصعيد السطحي وانطلاقا من برامج سردية محكومة سلفا برهانات صراع الفاعلين في صلب النص. وهي رهانات خطيرة تمس إشكالية السلطة في تسيير شؤون الرعية وتصدع العلاقة بين السلطة والشعب من ناحية والسلطة والفئة المثقفة من ناحية ثانية. إن هذه الأزمة ناتجة أصلا عن نظام سياسي متآكل من الداخل تحكمه مجموعة من القيم المضطربة [مصادرة الحريات الفردية والجماعية، الاختطافات، الاغتيالات] مسخرة لـِ"وضع الوطن فى الجيب". إن سوء التسير الذي يقف وراء

الوضع المهترئ الذي آلت إليه البلاد يشكل حقيقة هي بمثابة الرسالة التي يحرص الراوي على "نشرها حتى لا يسجن التاريخ" [الرواية، ص. 52]. فهو يسعى إذن إلى تحرير التاريخ باستشارته. يضع الكاتب في احتلاله لموقع المرسل المحرك منذ البداية القارئ وجها لوجه مع نص تاريخي ويؤسس الرواية عليه. ويتقدم كوسيط بين لحظة حاضرة [زمن الكاتب] ولحظة ماضية [زمن الأمير عبد القادر]:

"أعلم أن هذا الإقليم، منذ دخل في حيز العمران، مأوى الفتن وعش الأهوال والمحن ومنتزى الملوك والثوار ومطمح نظر الكبار والصغار، فما هدأت لأهله روعة ولا طابت لهم فيه هجعة ولا خيم بساحته أمن، ولا فارقه الروع والوهن ولا خلا منه زمان من قراع الكتائب ومفاجأة المصائب والنوائب.

ومع هذا، ترى مساجده ومدارسه بالعباد والعلماء عامرة، ومجالسه بالأذكار وأنواع العلوم زاهرة" [تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر].

يحتل الخطاب الروائي موقعا تناصيا[1] intertextuel بما أنه يلتقي ويتقاطع مع الخطاب التاريخي الذي يتصدر نص الرواية ويفتتحه. فهو بعبارة أخرى يمارس عليه سلطته بمعنى أن النص يشتغل ضمن أطره الدلالية المحددة سلفا. وسوف نلاحظ أن المسارات الصوريه التي تحكم هذا النص على نحو ما سنبين ذلك لاحقا ستتوزع بطريقة أو بأخرى لتتماهى في أشكال سردية وخطابية عبر التناظرات الدلالية التي تضمن تجانس النص.

1-2 التجليات الدلالية للخطاب التاريخي في النص الروائي

إن تصدير الرواية بنص ذي طبيعة تاريخية وإسناده لهيئة تلفظية (الأمير عبد القادر) مرجعية référentielle معناه أن الكاتب يؤسس منذ البداية القارئ فاعلا في برنامج تكون الغاية منه التحري عن المعرفة التاريخية بوصفها موضوع جهة

(1) Louis Panier,Le discours d'interprétation dans le commentaire biblique in: Introduction à l'analyse du discours en sciences sociales, Hachette , Paris ,1979, p. 251 .

objet modal أساسي. ينبغي أن نفهم الموضوع في هذا المساق على أنه عنصر أساسي يدخل في تشكيل كفاءة القارئ. وهو إلى جانب العناصر الأخرى يؤسس القارئ فاعلا منفذا في برنامج تكون الغاية منه التحري عن الحقيقة التاريخية والدخول في وصلة بها. إنه يضع النص في رحم الأحداث التاريخية التي عرفتها البلاد. ولهذه الاعتبارات، يحتل الكاتب موقع المرسل المحرك الذي يفعل القارئ لممارسة نشاط معرفي في سبيل بناء معرفة تاريخية تشكل خلفية لتأويل وفهم ما وقع في الزمن الحاضر. فهذه الدعوة الصريحة لتحرير التاريخ تشتغل في الاتجاه المعاكس تماما لبرنامج الفاعل المضاد المجسد في السلطة والرافض للتاريخ. ولئن كان الفاعل المضاد ينظر إلى التاريخ على أنه /غير ضروري/ [لا وجوب الكينونة]، فإن الكاتب – في استشارته هيئة مرجعية تجسد فاعلا معارفيا وفاعلا منفذا – يعتبر التاريخ /ضروريا/[وجوب الكينونة[1]]. وإذا كانت السلطة حريصة على سجن التاريخ فلأنها راغبة في البقاء على المستوى الظاهر مفتقرة في ذلك إلى هذه القدرة [ص. 136/135] على ولوج كينونة تجليات الفعل الإنساني. من هنا فإن التاريخ ليس فقط موضوعا لخطاب يسجل وقائع حدثت بالفعل في الماضي بل

(1) J. C. Giroud, Apologie pour l'historien, Analyse d'un article de Lucien Febvre in: Introduction à l'analyse du discours en sciences sociales, Hachette , Paris ,1979, p. 132 .

- يقدم جون كلود جيرو دراسة رائدة في مجال البحوث السيميائية التابعة لمدرسة باريس. ويعد هذا الإسهام العلمي المتميز قراءة من القراءات الممكنة لخطاب لـ لوسيان فيبر حول الممارسة التاريخية ترمي إلى تأسيس وتوضيح الطريقة التي يبنى بها التاريخ. وقد لاحظ الباحث أن الفقرات الثلاثة الأولى من نص لوسيان فيبر تسعى إلى طرح موضوع التحري التاريخي. فيما تهدف الفقرات الثلاثة الموالية إلى توضيح الشروط الضرورية والعمليات اللازمة لامتلاك الموضوع المحدد سلفا. وتقدم الفقرات الثلاثة الأخيرة نموذجا لفعل المؤرخ الذي انتهى إلى امتلاك الموضوع. وقد سمحت له هذه الملاحظات بتجميع الفقرات وفق مختلف المقامات التي تشتغل عليها العلاقة فاعل/موضوع. انطلاقا من هذا الوصف الأولي،أشار إلى إمكانية تحديد مظهرين من الخطاب مناسبين للحظتي التنظيم السردي:

أ- سياق امتلاك الموضوع "المعرفة التاريخية": يتعلق الأمر هنا بفعل يفترض وجود كفاءة

ب- تبليغ الموضوع: يبلغ الموضوع الذي امتلكه الفاعل الكفء إلى المرسلين إليهم. ويرى الباحث أنه إذا أردنا تحديد تجليات هذا التنظيم انطلاقا من التاريخ، يمكن أن ينظر إلى هذا الأخير بوصفه موضوعا قابلا للتحديد وفق طريقتين:إما بالنظر إلى الفعل المنتج،يعني باعتباره حدا لبرنامج الامتلاك، وإما بالنظر إلى علاقته بالمرسلين إليهم وفي هذه الحالة ينظر إلى التاريخ بوصفه رهانا للتبليغ.

إنه موضوع لخطاب اجتماعي. نلمس هذه المسألة في النص الذي قدمه الكاتب. فهو ينبهه منذ البداية إلى الاضطرابات والتمزق الاجتماعي الممتدة في هذا البلد عبر حقب تاريخية متوغلة في زمن محدد بانتقال هذا البلد إلى العمران[1] وتأكيدا لهذه المعرفة الراسخة لدى الكاتب، نلاحظ أن الفقرة الأولى تحكمها مهيمنة دلالية تحيل على عالم مشحون بالحروب المتواصلة والموت. نستشف ذلك من خلال الحقل المعجمي الآتي:

الفتن، الأهوال، المحن، الروع، الوهن،

الحروب والموت

الغزو، قراع الكتائب، المصائب، النوائب.

غير أن المقطع الثاني من هذا النص يفرز قيما مجسدة في فضاءين يعد الواحد منهما امتدادا للآخر ويحيلان على عالم متصف بقيم السلم والتسامح. ويطرح هذا المقطع إشكالا في غاية التعقيد بالمقارنة مع المقطع الأول. كيف يمكن أن تكون المساجد والمدارس عامرة والأذكار وأنواع العلوم زاهرة والبلد ممزق وعرضة للمصائب والنوائب والغزوات المتصلة، وأهل البلد في اضطراب وقلق كبيرين. كيف يمكن أن نوفق بين السلم والتسامح والحياة والحروب المتواصلة والموت؟ حتى نرفع حدود التناقض الموجود على هذا المستوى، سنلاقي هذا النص بالسياقات السردية التي يحيل عليها والمضامين الدلالية التي يتفاعل معها استنادا إلى التناظر الدلالي isotopie sémantique[2].

---

(1) العمران:ما يعمر به البلد ويحسن حاله بواسطة الفلاحة والصناعة والتجارة وكثرة الأهالي ونجح الأعمال والتمدن [المعجم الوسيط].

(2) نستعمل مصطلح التناظر للدلالة على" مجموعة مكررة من المقولات الدلالية التي ترد القراءة الموحدة للحكاية ممكنة ومتجانسة.

لمزيد من التفصيل حول هذه المسألة، انظر:

- A. J. Greimas, Sémantique structurale, P. U. F,Paris,1986,p. 87 .

انطلاقا من الدلالات المحورية المسجلة في النص الافتتاحي للأمير عبد القادر، نلاحظ أن القصة تشير إليها مباشرة لإقناع القارئ بحقيقة ما يجري في اللحظة الحاضرة وأن الخطاب السردي محمل بحقيقة تاريخية.

إن المقولات المسجلة في النص تشكل إطارا لخطاب مرجعي [تاريخي] تجسده قصة تروي وقائع حدثت في الجزيرة وتظهر تجلياتها في المقطع السردي الآتي:

"خلال تلك الأيام العصيبة داهمنا تاريخ الجزيرة بأهواله ومحنه وكوارثه المتلازمة عصرا بعد عصر" [الرواية، ص. 19].

يلتقي هذا الملفوظ بالنص الافتتاحي للأمير عبد القادر من حيث العلاقات الدلالية التي يفرزها تفاعل النصين في إطار التواصل الكلامي communication verbale[1]. يمكن أن نلمس تمظهرات هذا التفاعل[2] في الحمولة الدلالية المشتركة بين النصين على النحو الآتي:

النص الافتتاحي	**الموضعة الزمنية[3]**	**النص الروائي**	**الموضعة الزمنية**
/الفتن/	منذ دخل في حيز	/الأهوال/، /	... عصرا بعد
/الأهوال/،/المحن/	العمران.	المحن/،	عصر.
/الروع/، الوهن/،		/الكوارث/.	
/المصائب/،			
/النوائب/.			

- A. J. Greimas, J. Courtés, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette, Paris, 1979, p. 197 .
- A. J. Greimas, Du Sens, Seuil, Paris, 1970. p188 .
- J. Courtés, Analyse sémiotique du discours, Hachette , Paris ,1991, p. 186

(1) Tzvetan Todorov, Mikhaïl Bakhtine, Le principe dialogique suivi des écrits du cercle de Bakhtine , Seuil , Paris , 1981,p. 96

(2) يستعمل هذا التفاعل للدلالة على عملية التناص intertextualité. أنظر المرجع أعلاه.

(3) إن الموضعة الزمنية localisation temporelle التي ترتكز على إجراءات الفصل والوصل الزمنيين تقطع وتنظم التتابعات الزمنية مشكلة بذلك إطارا تستقر فيه البنيات السردية. أنظر:

- A. J. Greimas ,J. Courtés ,o. p. p. 388 .

يمكن أن ننقل هذا الجدول على الصعيد الدلالي على النحو الآتي:

النص الافتتـــاحي	الموضعة الزمنية	النص الروائـــــي	الموضعة الزمنية
الحروب لمتصلة/الموت	**قبل/الآن/بعد**	**الحروب المتصلة/الموت**	**قبل/الآن/بعد**

استنادا إلى هذا الجدول، نلاحظ أن التواصل الاجتماعي الممكن تؤطره حروب متصلة وبشكل تعاقبي؛ فـ/ البعد/ في النص الافتتاحي هـي /الآن/ فـي الـنص الروائي ذلك أن الراوي بوصفه هيئة لافظة حاضرة يقدم نصا يروي أحداثا وقعت بالفعل وينقل شهادة هي بمثابة الحجة على ما وقع ويقدم في الوقت نفـسه تأويـل مؤرخ لما سيحدث غدا؛ وهو تأويل مبني على المعاينة والملاحظة لوضع اقتـصر فيه المؤرخ على منظور يغطي ما جرى لأهل "هذا الإقليم". ولئن كان الراوي أولى أهمية خاصة لهذا المنظور، فإنه سكت، على الأقل في النص الذي بين أيدينا، عـن الفاعل الحقيقي الذي يقف وراء المأساة التي لحقت بأهل الإقليم. حتى لـو سـلمنا بوجود الفاعل المستعمر [مطمح الكبار]، فإن الإشكال يبقى قائما بخصوص الفاعل في المراحل السابقة على الفترة الآنية للراوي [قبل 1830].

"خلال تلك الأيام العصيبة داهمنا تاريخ الجزيرة بأهوالـه ومحنـه وكوارثـه المتلازمة عصرا بعد عصر" [الرواية، ص. 19].

الراوي هنا يشمل أناه الذي يعبر عن فاعل جماعي بوصفه موضوعا يمارس عليه التاريخ سلطته. فهو لم يكن يتوقع الوقع العنيف لـِ /الأهـوال/ و/ المحـن/ و/الكوارث/ ولم يكن مهيئا لتلقيه. نستشف ذلك من خلال الحمولة الدلالية للوحدات المعجمية الآتية:

/الأهوال/: الأمر الشديد. الخوف والرعب.

/ المحن/: البلاء والشدة.

/الكوارث/: النازلة العظيمة.

يقدم هنا التاريخ على أنه مجموعة من الأحداث المتسمة بـ/الشدة/ والباعثة على /الخوف/ و/الرعب/. ينبغي أن نفهم الحدث هنا على أنه تغيير في الوضع الاستراتيجي للفاعل. يعني بوصفه فعلا يقوم به فاعل فردي أو جماعي على أن يكشف ويؤول هذا الفعل فاعل عارف cognitif غير فاعل الفعل نفسه. فهو في هذه الحالة يحتل موقع العامل الملاحظ الذي ينقل لنا من زاوية خاصة ما وقع. وهي زاوية تغطي مجال الفاعل الضحية. حتى نفهم حقيقة ما وقع، ينبغي أن نبحث في مواقع نصية أخرى عن العناصر التي يمكن أن تساعدنا على رفع الالتباس حول حقيقة الفاعل الذي مارس العنف على أهل هذا البلد. يمكن أن نشير هنا إلى أننا لا نحتفظ إلا بالعناصر المتوافقة مع المنظور المنهجي الذي نتبناه في سبيل فض بعض الإشكالات التي يطرحها النص الذي بين أيدينا.

إن الأيام العصيبة التي أشار إليها الراوي بدأت تتحدد زمنيا وبشكل تدريجي في قصة وإن شيدت على أسطورة، فإن أحداثها التي وقعت بالفعل أحدثت وضعا جديدا يتسم بالاستقرار. وقد بدأت هذه الأحداث، على نحو ما يروي ذلك سيدي منصور لشجرة البلاطتان الضخمة، بإحداث اضطراب في الجزيرة بالغزوة التي قادها شارل كان في سنة 1541. تلتقي هذه الغزوة بالتنبيه الوارد في المقدمة الافتتاحية التي صدر بها الكاتب الرواية. والتي تشير إلى أن هذا الإقليم أضحى "مطمح نظر الكبار والصغار" [الرواية، ص. 7]. إن الأيام العصيبة في هذا المساق هي محصلة للبرنامج العسكري الذي قام به الفاعل المنفذ شارل كان في سبيل الاستيلاء على الجزيرة:

"هاجم (شارل كان) هذه الجزيرة سنة 1541 وهو يقود بحرية ضخمة يساندها فرسان (...) غير أن فرسانه وأسطوله فشلوا في الاستيلاء على بيضائنا الناصعة" [الرواية، ص. 7].

لا يحدثنا الراوي، في هذا الملفوظ، عن الفاعل المنفذ في البرنامج المضاد الذي نجح في المحافظة على "البيضاء الناصعة" وعن كفاءته في تحقيق الأداء

العسكري وعن استراتيجيته الحربية. وفي مقابل هذا، فإنه اختار زاوية الفاعل المعتديsujet agresseur. إن العلاقة بينهما محينة actualisée في برنامج سردي يشتغل فيه التاريخ الذي يحمل شكلا مؤنسنا، من المنظور الزمني، اشتغالا متصلا ومستمرا تظهر تجلياته على الفاعل الجماعي في **الأهوال والمحن والكوارث** الباعثة على وضع متسم بالحرب والموت. يتخذ هذا البرنامج شكل القدر المحتوم الذي لا فكاك منه. ذلك أن الفاعل الجماعي معطل ومشلول على جميع الأصعدة لا يملك القدرة على القيام بفعل مضاد يوجه لفعل التاريخ. من هنا، فإنه يخضع خضوعا كليا لسلطته. فهو لا يستطيع أن يغير مجراه في اتجاه الحياة. ولا يستطيع أن يصنعه بما أنه لا يملك القدرة على مواجهته. إن الخطاب يرمي إذن إلى قلب الوضعية الأولية بإظهار الحاجة والضرورة إلى التاريخ. ويعني تغيير مجرى التاريخ امتلاك سلطة صناعته وكتابته والدفاع عن الذاكرة التي تحمله. إذا كانت الذاكرة الجماعية مغيبة، فهذا يعني أن حقها في معرفة حاضرها المرهون بماضيها مهضوم. ومن ثم وجب علينا أن نبحث عن مالك هذه السلطة في موضع آخر بما أن التاريخ لا يمكن أن يضطلع بمهمة المرسل المحرك والصانع للأحداث المتعاقبة.

يظهر المرسل / المحرك الحقيقي للتاريخ في السلطة الممثلة في شيخ الجزيرة وجلاوزته:

"لم يعجب ذلك شيخ الجزيرة وجلاوزته، فألقوا القبض على سيدي منصور واجتثوا الشجرة الطيبة من جذورها، ولما أصر الرجل على صحة النبأ، خوزقوه وشنعوا بجسده، بعرضه سبعة أيام وسبع ليالي (...) ترهيبا لكل من تسول له نفسه نشر الأنباء المغرضة (في نظر الشيخ الأكبر) التي تقلق راحة أهل الجزيرة وتكدر صفوهم" [الرواية، ص. 24].

إن الشيخ بوصفه حاكما ومسيرا لشؤون رعية الجزيرة يستغل موقعه في السلطة لقمع كل معارضة إعلامية. يلقى القمع، في هذا المقام، في الظاهر تبريره وشرعيته في الراحة التي يسهر الشيخ الأكبر على توفيرها لأهل الجزيرة والتي

تخول له خرق **وجوب الإعلام وحرية التعبير والحق فـــي الإعـــلام.** علـــى هـــذا الأساس، نلاحظ أن الخطاب السياسي الذي تعمل السلطة على تجليته يتحرك فـــي الظاهر وفق آليات تحتكم إلى منطق قد يجعل المتلقي يقتنـــع بـــسهولة أن الـــسلطة تراهن على **راحة أهل البلدة.** وبما أنها تمثل **الإرادة الشعبية،** فإن كل فعـــل تقـــوم بتحقيقه في سبيل الاستجابة للرغبة الجماعية لأهل البلدة مستمد مـــن هـــذه الإرادة. يتعدد هذا الفعل ويتنوع وفق ما يتطلبه الوضـــع [المطـــاردة، التـــشنيع بالجـــسد، الترهيب]. إن الرجل [سيدي منصور] يخرج من هذا المنطق ويسعى إلى تحريـــك أهل البلدة لإعداد العدة لمواجهة العدو العتي القادم من الشمال. ومـــن الواضـــح أن إصرار الرجل على صحة هذا النبأ يعني أنه تقصى هذا الخبر في مـــصدره، وأن هذا الخبر مطابق لحقيقة ما سيجري. تكتسي عملية التحريك في هذا المساق أهمية بالغة لاعتبارين أساسيين.

أولهما: تأتي هذه العملية في غياب قنوات الاتصال بين السلطذة وأهل البلـــدة لفضح السلطة وإقناع الرأي العام بسوء تسييرها **وغفلتها عن النظر في شـــؤونه المصيرية.**

ثانيهما: إن عملية التحريك تتعدى الفعل الإعلامي لتتحـــول إلـــى معارضـــة سياسية تسعى، في المقام الأول، إلى تعبئة أهل البلدة للدفاع عن وطنهم وحقهم في الحياة وإشعارهم ضمنيا بتواطؤ السلطة مع العدو.

وينهض تأويل الشيخ لهذه الحقيقة أساسا علـــى إخـــراج العلاقـــة الطبيعيـــة: **سلطة/إعلام/ معارضة** من منطق **الحرية في التعبير الحر عن وقائع الحياة اليومية** وإدخالها في منطق **الصراع والمواجهة والقمع** من خلال تأويل /الأنباء/ والنظـــر إليها على أنها **مغرضة.**

تأسيسا على هذا، تسعى السلطة من خلال اتهامها للرجل وقمعه إلـــى نـــسف الإطار التمثيلي الذي ينضوي تحته برنامج سيدي منصور الهادف إلى إشعار أهـــل البلدة باجتياز العدو...

انطلاقا من المعطيات النصية، وتأسيسا على الملاحظات السابقة يمكن أن نسجل، على مستوى القصة، القطيعة الموجودة بين السلطة والشعب، وغياب قنوات التواصل بينهما على جميع الأصعدة. يلجأ الراوي منذ البداية إلى تنويع زوايا النظر لهيئات تلفظية تروي من موقع تجربتها ما وقع لها من أحداث مأسوية تسببت فيها السلطة. إن هذه التجارب هي بمثابة الشهادات الحية التي تجري مجرى الحجة على الممارسات القمعية للسلطة وتلغي مبررات وجودها على هرمها مادام حضورها لا يمثل ولا يخدم إلا فئة "المشايخ" القليلة.

من هذه المنطلقات، تشيد استراتيجية الخطاب، على آلية منطقية يتم فيها بناء الفعل الإقناعي من داخل نص الرواية وعلى أساس الوضعيات السردية المفرزة على الصعيد السطحي وانطلاقا من برامج سردية محكومة سلفا برهانات صراع الفاعلين في صلب النص. وهي رهانات خطيرة تمس إشكالية السلطة في تسيير شؤون الرعية وتصدع العلاقة بين السلطة والشعب، من ناحية، والسلطة والفئة المثقفة من ناحية ثانية.

بيبليوغرافيا البحث

① ملحق خاص حياة الروائي خلاص جيلالي وإنتاجه :

ولد خلاص جيلالي بعين الدفلى يوم 20 أبريل 1952 وهو من عائلة فلاحين بسطاء. زاول تعليمه الابتدائي بعين الدفلى، ثم التحق بدار المعلمين بخميس مليانة أين تخرج كمدرس سنة 1970. ويتحصل في سنة 1973 على شهادة البكالوريا ليسجل بمعهد الحقوق جامعة الجزائر لتحضير شهادة الليسانس. غير أنه توقف عن الدراسة في السنة الثانية لأداء الخدمة العسكرية في جيجل ووهران [1973-1975]. وعاد إلى التعليم بعد ذلك في عين الدفلى. لم يلبث أن استقال من سلك التعليم ليستقر بالجزائر العاصمة ويشتغل كمترجم حر. تخلى عن هذه المهنة ليعمل في العديد من المؤسسات [البنك، وزارة الثقافة، شركة نشر وتوزيع الكتاب، المركز الثقافي بالعاصمة، وتوظف أخيرا في المجلس الأعلى للإعلام ووزارة الاتصال والثقافة التي أخذ منها التقاعد في سنة 1997]. ثم تفرغ للكتابة الصحفية والإبداعية.

أعماله المنشورة

أ-المجموعات القصصية:

- أصداء، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976.
- خريف رجل المدينة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 1979، ط2 1984.
- نهاية المطاف بين يديك، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 1981.
- نهاية المطاف بين يديك، الدار التونسية للنشر، تونس، ط2 1982.

ب-الروايات:

-حمائم الشفق، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

-عواصف جزيرة الطيور، مارينور، 1998.

-زهور الأزمنة المتوحشة، دار هومة، 1998.

-بحر بلا نوارس، منشورات دحلب، 1998.

-الحب في المناطق المحرمة، دار البرزخ، 2000.

ج- قصص الأطفال:

-سر المشجب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

-مرارة الرهان، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

-الديك المغرور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1984.

-السفر إلى الحب، دار الحضارة، دار ثالة، الجزائر،1997.

② المراجع المعتمدة في البحث [مرتبة حسب ظهورها في النص]

-خلاص جيلالي، **عواصف جزيرة الطيور، المطر والجراد**، منشورات مـــاريـنور، الجزائر، 1998.

- Jean Caude Coquet, **Le discours et son sujet, Pratique de la grammaire modale**, T2, Klincksieck , Paris,1985.

- A. J. Greimas, **Du sensII, Essais Sémiotiques,** Seuil, Paris, 1983.

- Grouped 'Entrevernes **Analyse sémiotique des textes** P. U. L,Lyon1984.

- J. Courtés, **Analyse sémiotique du discours,** Hachette, Paris, 1991.

- دانيال ريغ، قاموس السبيل، عربي/فرنسي – فرنسي / عربي، لاروس، باريس، 1983.

- سعيد بن كراد، مدخل إلى السيميائيات السردية، دار تينميل للطباعـــة والنـــشر، مراكش، 1994.

- A. J. Greimas,J. Courtés, **Dictionnaire raisonné de la théorie du langage**, Hachette,Paris,1979.

- A. J. Greimas, **Du Sens II**, Seuil, Paris, 1983.

- J. Courtés, **Analyse sémiotique du discours**, Hachette, Paris,1991.

- Louis Panier, Le discours d'interprétation dans le commentaire biblique in:

Introduction à l'analyse du discours en sciences sociales, Hachette, Paris ,1979.

- J. C. Giroud, Apologie pour l'historien, Analyse d'un article de Lucien Febvre in:

Introduction à l'analyse du discours en sciences sociales, Hachette, Paris ,1979.

-A. J. Greimas, **Sémantique structurale**, P. U. F,Paris,1986,p. 87.

-A. J. Greimas, J. Courtés, **Dictionnaire raisonné de la théorie du langage**, Hachette, Paris,1979.

-A. J. Greimas, **Du Sens**, Seuil, Paris, 1970.

- J. Courtés, **Analyse sémiotique du discours**, Hachette, Paris, 1991.

-Tzvetan Todorov, **Mikhaïl Bakhtine, Le principe dialogique suivi des écrits du cercle de Bakhtine**, Seuil , Paris, 1981.



دار مجدلاوي للنشر والتوزيع
تلفاكس: ٥٣٤٩٤٩٧ - ٥٣٤٩٤٩٩
ص.ب: ١٧٥٨ عمان ١١٩٤١ الأردن

Dar Majdalawi Pub. & Dis,
Telefax: 5349497 - 5349499
P.O.Box: 1758 Amman 11941 Jordan

E-mail: customer@majdalawibooks.com
www.majdalawibooks.com

ISBN: 9957-02-250-4